الزهد في الإسلام

قراءة في صفة الصفوة

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/١٢/٤٥٧٠)

٢١٢
جرار، مأمون فريز
الزهد في الإسلام قراءة في صفة الصفوة/مأمون فريز جرار_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
(١٠٨) ص
ر.أ: (٢٠١٢/١٢/٤٥٧٠).
الواصفات: /الزهد//الآداب الإسلامية//الإسلام/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ردمك) ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-١٥٤-٦



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@hotmail.com
www.almamoun-jo.com

الزهد في الإسلام

قراءة في صفة الصفوة

الدكتور
مأمون فريز جرار



دار المأمون للنشر والتوزيع



فهرس

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد،

فقد شرع لنا رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم سنن الهدى، وخير الهدي هديه، وكان صحابته رضي الله عنهم التطبيق العملي للإسلام وفق التربية النبوية، وكانوا نماذج يقتدى بها ويهتدى بعملها .

وقد طرأت من بعد في العصور التالية طرق ومناهج قارب بعضها الهدي النبوي وبعضها ابتعد عنه قليلا أو كثيرا، ومما وقع فيه هذا الأمر مفهوم الزهد وتطبيقاته العملية .

وقد سجل ابن الجوزي رحمه الله في كتابه « صفة الصفوة » نماذج وألوانا من الزهد في عصور متعددة، وقد استوقفني هذا الكتاب بما فيه، وهو كتاب قيم أسأل الله تعالى أن يجزي مؤلفه خيرا، فقد جمع سير الصالحين في عصور شتى ووضعها بين أيدي القراء .

وهذا الكتاب مقالات كتبتها في جريدة الدستور الأردنية سنة ٢٠٠٦ تحدثت فيها عن هذا الكتاب ومنهجه ومفهوم الزهد كما تجلى فيه، وأرجو أن يكون في ما قلت الصواب، وإن أخطأت فأستغفر الله العظيم من الزلل في الفكر والقول والعمل .

وأسأل الله التوفيق في ما يرضي ربنا ويقربنا إليه زلفى

والحمد لله رب العالمين

د. مأمون فريز جرار

ابن الجوزي وصفة الصفوة

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن، من كبار علماء هذه الأمة، ومن أكثرهم تأليفا للكتب، مع تنوع في مجالات التأليف. وهو واعظ من أشهر وعاظ أمتنا عبر تاريخها، وقد وصف شيئا من مجالس وعظة ابن جبير في رحلته، ومدحه وجعل لقاءه والاستماع إليه غاية يُسعى إليها، بل إنه رأى أن لو لم يكن من ثمرات رحلته من المغرب إلى المشرق إلا لقاء ابن الجوزي لكان ذلك كافياً.

ومن مؤلفاته: زاد المسير في علم التفسير، والمنتظم - في التاريخ، والموضوعات في الحديث ،وتلبيس إبليس والمدهش في الوعظ وغيرها كثير. وقد توفي سنة ٥٩٧ هجرية عن سبعة وثمانين عاماً.

ومن كتب ابن الجوزي كتاب صفة الصفوة. وهو كتاب في سير الصالحين والصالحات، وقد تناقل بعض الكتاب أنه اختصار لكتاب: حلية الأولياء لأبي نعيم، وهذا غير صحيح، بل هو كتاب ألفه ليكون بديلاً للحلية.

لم يُكشف لك كل الأمر، وأنا أكشفه لك...».

هذا الكلام إذا أخذ مقطوعا عما تلاه من قول ابن الجوزي أوهم أن طلب ذلك التلميذ قد لقي قبولا عند أستاذه، والحقيقة غير ذلك، لأن ابن الجوزي قد درس الحلية دراسة منهجية تدل على عقلية علمية دقيقة، وقدرة على النقد عالية، وذكر في مقدمة (الصفة) عشرة أمور كدرت الحلية كما قال.

ثم قال بعد ذلك إنه ألف كتابا جديداً ولم يختصر الحلية، وهذا بين في قوله :«وقد حداني جدّك، أيها المريد، في طلب أخبار الصالحين وأحوالهم، أن أجمع لك كتاباً يغنيك عنه، ويحصّل لك المقصود منه، وزيد عليه بذكر جماعة لم يذكرهم، وأخبار لم ينقلها، وجماعة ولدوا بعد وفاته، وينقص عنه بترك جماعة قد ذكرهم لم ينقل عنهم كبير شيء، وحكايات قد ذكرها، فبعضها لا ينبغي التشاغل به، وبعضها لا يليق بالكتاب على ما سبق بيانه».

فكتاب صفة الصفوة، ليس اختصارا للحلية، بل هو كتاب جديد وضع بمنهجية جديدة، قد يتشابه بعض ما فيه بما ورد في الحلية، إلا أنه ليس اختصارا له. وها هو ابن الجوزي يبين الغاية من وضع كتابه الجديد فيقول:

«لما كان المقصود بوضع مثل هذا الكتاب ذكر أخبار العاملين بالعلم، الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، المستعدين للنقلة بتحقيق اليقظة والتزود الصالح، ذكرت من هذه حاله دون من اشتهر بمجرد العلم، ولم يشتهر بالزهد والعبادة، ولما سميت كتابي هذا صفة الصفوة رأيت أن أفتتحه بذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه صفوة الخلق وقدوة العالم.. »

وقد بين بعد ذلك منهجيته في كتابه وطريقة ترتيبه.

ابن الجوزي ومنهجية حلية الأولياء

وجه ابن الجوزي في مقدمة كتابه (صفة الصفوة) نقدا إلى منهجية حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني وقد جعل نقده في عشرة أمور قال إنها كدرت الكتاب:

الأمر الأول: أنه أورد في كتابه ذكر جماعة لم ينقل عنهم ما يحقق الغاية من كتابه وهي ذكر أخبار الأخيار وشرح أحوالهم وأخلاقهم ليقتدى بها.

الأمر الثاني: أنه أورد في بعض تراجم كتابه ما لا يليق بالكتاب ولا يحقق غايته، كإيراده قطعة من التفسير في ترجمة كل من مجاهد وعكرمة، وقطعة من التوراة في ترجمة كعب الأحبار. وهذا الإيراد لا يحقق الغاية من الكتاب.

الأمر الثالث: تكرار بعض المعلومات في أكثر من ترجمة، كإيراد كلام الحسن البصري في ترجمته وتكراره في تراجم أصحابه الذين رووا كلامه، وتكرر هذا في أكثر من موضع عن أكثر من شخصية.

الأمر الرابع: إيراده عددا من الأحاديث التي رواها عدد من المترجم لهم، مما لا يحقق غاية الكتاب، وليس موضعه فيه.

الأمر الخامس: إيراده أحاديث كثيرة باطلة موضوعة من غير بيان حالها، مما يوهم من يقرأ الكتاب أنها مقبولة.

الأمر السادس: وهو نقد أسلوبي لاستعمال أبي نعيم «السجع البارد في التراجم» مما لا يحتوي على معنى صحيح. وفي هذا تقديم للفظ على المعنى مما لا يحقق غاية البيان.

الأمر السابع : نسبة عدد من الصحابة ومن بعدهم إلى التصوف، ولم يكن أولئك من المتصوفة بالمعنى الاصطلاحي، لأن التصوف مذهب معروف عند أصحابه لا يقتصر فيه على الزهد.

الأمر الثامن: إطالته في النقل عن بعض المترجم لهم، وبعض ما نقله لا قيمة له، وبعضه غير لائق بالكتاب لأنه لا يحقق غايته، ويعقب ابن الجوزي على ذلك بأنه «خلل في صناعة التأليف، وإنما ينبغي للمصنف أن ينتقي فيتوقى ولا يكون كحاطب ليل».

الأمر التاسع: أنه ذكر أشياء عن الصوفية لا يجوز فعلها، فربما سمعها المبتدئ القليل العلم فظنها حسنة فاحتذاها.

وأورد بعض الأمثلة التي لا يصح أن تنسب إلى المفهوم الشرعي للتوكل، أو بعض الفهوم غير السوية لبعض الآيات الكريمة مما وصفه بالأشياء السخيفة الممنوع منها شرعا.

وهذا النقد يمس المضمون والغاية مما يدل على وعي ابن الجوزي في صناعة التأليف.

والأمر العاشر: أمر منهجي له علاقة بطريقة ترتيب الكتاب، لأنه قدم من ينبغي أن يؤخر، وأخر من ينبغي أن يقدم.

ولم يتبع وجها بينا في الترتيب: فلا هو ذكر المترجم لهم على ترتيب الفضائل ولا على ترتيب المواليد (الترتيب الزمني) ولا جمع أهل كل بلد في مكان (الترتيب المكاني) وربما فعل هذا في وقت ثم عاد فخلط. هذه الأمور العشرة ألوان من الخلل وردت في كتاب الحلية، وقد أضاف إليها ابن الجوزي خللا آخر تمثل في نقص ثلاثة أمور :

أولها: أنه لم يورد سيرة موجزة للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيها : أنه أهمل ذكر عدد كبير ممن عرف عنهم العبادة، مع أنه أورد من هم أقل منهم رتبة في كتابه.

ثالثها: أنه قصر في ذكر عوابد النساء فلم يذكر منهن إلا قليلا. ذلك نقد ابن الجوزي لكتاب حلية الأولياء الذي جعل كتابه (صفة الصفوة) بديلا يغني عنه.

منهجية صفة الصفوة

من حسن ما يبدو في كتاب صفة الصفوة أن ابن الجوزي لما بين عيوب كتاب حلية الأولياء وما فيه من خلل منهجي بين في فصل خاص منهجه في تأليف كتابه. فلقد عاب على أبي نعيم أنه لم يتخذ لنفسه خطة في ترتيب من ذكرهم في كتاب، أما هو فخطته كانت واضحة لديه:

فقد أفرد بابا تمهيديا مختصرا في فضل الأولياء والصالحين،

ثم قدم موجزا مكثفا لسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولعدد من أصحابه الذين اشتهروا بالعلم المقترن بالزهد والتعبد، وراعى في ترتيبهم منزلتهم في الفضل فقد قدم العشرة المبشرين بالجنة .

ثم ذكر عددا من الصحابيات ثم تلا ذلك ذكر التابعين ومن بعدهم.

ويلاحظ أن ابن الجوزي استخدم معيارين أساسيين:

المعيار الزماني : (الطبقات)

والمعيار المكاني، ويلفت النظر دقته في هذا المعيار. وقد أراد أن يجعل له نقطة ارتكاز وكانت لديه بغداد عاصمة الخلافة، لكنه لم ير تقديمها على

المدينة المنورة ومكة المكرمة، بل ذكر بعدهما الطائف واليمن، ثم عاد إلى بغداد وانطلق منها وذكر أسماء المدن واحدة إثر أخرى وكأن الخريطة أمامه يمضي من جهة إلى أخرى على بينة من أمره.

وكانت خطته في ذكر الصالحين على النحو الآتي :

«وقد حصرت أهل كل بلدة فيها، وترتيبهم على طبقاتهم، ابدأ بمن يعرف اسمه من الرجال ثم أذكر بعد ذلك من لم يعرف اسمه، فإذا انتهى ذكرت عابدات ذلك البلد على ذلك القانون، وربما كان في أهل البلد من عقلاء المجانين من يصلح ذكره من الرجال والنساء فأذكره».

وقد علل هذا الترتيب الجغرافي بأنه وسيلة تسهل على قارئ الكتاب الوصول إلى مراده فيه.

وقد دفعه حرصه على الخير ورغبته في تقديم صالح المواقف والأقوال إلى الناس إلى الاستقصاء الذي جعله يتتبع ما روي عن عباد السواحل والبوادي والفلوات، ومن لقيه ممن روى عنه في طريق مكة أو بعرفة أو في الطواف أو في الغزو أو في طريق سفر أو سياحة وهذا لمن لم يعرف بلده ولم ينسب إلى جهة محدودة.

وبلغ به الأمر أن أورد ما نقل عن فتيات صغيرات نقل عنهن كلام يشبه كلام العابدات الكبيرات، بل امتد حرصه لينقل طرفا من أخبار عباد الجن .

وإذا كان قد وضع خطة في ترتيب الأسماء فإنه وضع خطة للمادة التي يوردها قال:

«وإنما أنقل عن القوم محاسن ما نقل مما يليق بالكتاب ولا أنقل كل ما نقل، إذ لكل شيء صناعة، وصناعة العقل حسن الاختيار، كما أني لا أذكر ما لا يصلح أن يقتدى به ممن هو في صورة العلماء والزهاد، وقد تجوزت بذكر جماعة من المتصوفة وردت عنهم كلمات منكرة، وكلمات حسان فانتخبت من محاسن أقوالهم لأن الحكمة ضالة المؤمن».

ومما ينفي وهم كون صفة الصفوة اختصارا لحلية الأولياء ما قاله ابن الجوزي :

«ومع تنقينا وتوقينا وحذف من لا يصح وما لا يصلح فقد زاد عدد من في كتابنا على ألف شخص، يزيد الرجال على ثمانمئة زيادة بينة وتزيد النساء على مئتين زيادة كثيرة. ولم يبلغ عدد رجال (الحلية) الذين ذكرت أحوالهم في

تراجمهم ستمئة، بل قد ذكر جماعة لم يذكر لهم شيئا ولا أظنه ذكر في جميع الكتاب عشرين امرأة».

فهل يمكن بعد هذا أن يقال إن صفة الصفوة اختصار لحلية الأولياء؟!!.

السيرة النبوية في صفة الصفوة

ابن الجوزي عالم خبير كانت له مع القلم صحبة، وله بالتأليف دراية وخبرة، وقد تجلت هذه الصفات في كتاب صفة الصفوة. وأول ما يطعالنا فيه سيرة النبي ﷺ، هذه السيرة التي لم يترك جانبا من جوانبها إلا ذكره، فمن أراد سيرة موجزة وافية فعليه بقراءة ما كتبه ابن الجوزي.

فقد ذكر نسبه ﷺ ووالده ووالدته وحمله وولادته ووفاة أبيه ثم أمه، وكفالة جده له ثم كفالة أبي طالب له، وما كان من أمره مع بحيرا الراهب، ورعيه الغنم، وخروجه إلى الشام في تجارة خديجة رضي الله عنها، وزواجه منها، ثم علامات النبوة قبل أن يوحى إليه، ثم نزول الوحي وأحوال الوحي ورمي الشياطين بالشهب، واعتراف أهل الكتاب بنبوته وبدء الدعوة ثم معراجه ثم عرضه نفسه على الناس لينصروه، ثم ما كان من بيعة الأنصار ثم الهجرة إلى المدينة المنورة، وما كان في الطريق من أحوال، وحديث أم معبد، وما جرى له عند قدومه المدينة، وذكر ابن الجوزي من لهم صلة بالنبي ﷺ من أعمام وعمات وأزواج وسراري وأولاد وموالٍ ذكورا وإناثا، وذكر مراكبه ثم صفته الخَلقية

والخُلقية من تواضع وحياء وشفقة ومداراة وحلم وصفح، ومزاح ومداعبة وكرم وجود. وبين فضله على الأنبياء ومثله ومثل الأنبياء وحماية الملائكة له وتعظيم الصحابة له وحبهم إياه. وبين عبادته واجتهاده وتحدث عن فصاحته وأورد أمثلة من كلامه التي صارت أمثالاً تجري على الألسنة. وعقب على هذه الأمثلة بقوله «قلت: ولو ذهبنا نذكر من كلام رسول الله ﷺ العجيب الوجيز البليغ لطال، إذ كل كلامه يتضمن حكما. وكذلك لو ذهبنا نستقصي آدابه وأخلاقه وأحواله لجاءت مجلدات، وإنما اقتطفنا من كل فن قطفا وأشرنا إلى جملة برمز لأن مثل كتابنا هذا لا يتسع للبسط».

وقد ذكر بعد ذلك وفاة النبي ﷺ وما كان من أحوال المسلمين بعدها، وندب فاطمة عليها السلام له ومبلغ سنه وغسله عليه الصلاة والسلام وموضع قبره، ثم ختم بذكر الصلاة والسلام عليه وبلوغ سلام أمته له عليه الصلاة والسلام.

لقد أحسن ابن الجوزي تلخيص السيرة النبوية تلخيصا يقدم معالمها جميعا للقارئ من غير أن يفوته معلم منها، ويستطيع من خلال قراءة هذا التلخيص أن يلم بما ينبغي أن يعرفه من السيرة النبوية الشريفة. وهو لم

يستطرد بذكر التفاصيل بل قدم المعلومة وقدم القدوة والأسوة التي هي الهدف الأول من كتابه.ويلفت النظر أن أكثر ما أورده من الأخبار النبوية ورد في الصحيحين يتجلي ذلك في بيان ابن الجوزي مصادره، مما يجعلك تطمئن إلى ما يورده من أخبار السيرة النبوية الشريفة.

وكان لابن الجوزي تدخلات مباشرة في مواضع رأى أنها تحتاج إلى بيان، ومنها تعقيبه على معلومة وردت في حديث لحليمة السعدية :

«قال الشيخ وظاهر هذا الحديث يدل أن آمنة حملت غير رسول الله ﷺوقد قال الواقدي: لا يعرف عند أهل العلم أن آمنة وعبد الله ولدا غير رسول الله ﷺ».

وقال في ذكر علامات النبوة قبل أن يوحى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام : «قال الشيخ: قد ذكرنا أن أمه آمنة رأت عند ولادته نورا أضاء له المشرق والمغرب، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: رأت أمي نورا أضاءت له قصور الشام، وقد ذكرنا شق بطنه في صغره، وحديث ميسرة والراهب، وحديث بحيرا والغمامة التي كانت تظله، والأحاديث في هذا كثيرة إلا أنا نروم الاختصار فلهذا نحذف».

الصحابة في صفة الصفوة

علينا ونحن نقرأ كتاب «صفة الصفوة» أن نتذكر الغاية التربوية التي ألفه ابن الجوزي لتحقيقها. فهو كتاب يراد منه تقديم صور ومواقف وأقوال من حياة الصالحين والصالحات في تاريخ هذه الأمة. وهو ما بينه في حديثه إلى تلميذه في المقدمة:

«أعجبك ذكر الصالحين والأخيار، ورأيته دواء لأدواء النفس».

وكما بين هو مقصود كتابه أنه:

«ذكر أخبار العاملين بالعلم، الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، المستعدين للنقلة بتحقيق اليقظة والتزود الصالح، ذكرت من هذه حاله دون من اشتهر بمجرد العلم، ولم يشتهر بالزهد والتعبد».

نجد أثر هذا كله في حديث الكتاب عن الصحابة رضي الله عنهم، فلم نجده يورد منهم إلا عدداً محدوداً (١٣٣) صحابياً، و(٣٤) صحابية.

وقد تفاوتت تراجم الصحابة بين فقرة صغيرة تضم معلومة واحدة عن الصحابي وصفحات تزيد على العشر.

وابتدأ بذكر الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ثم ثنّى بذكر بقية العشرة المبشرين بالجنة. ثم ذكر بقية الصحابة في طبقات، فذكر البدريين ثم ذكر من المهاجرين و الأنصار من لم يشهد بدرا وله إسلام قديم، ثم ذكر من المهاجرين والأنصار من شهد الخندق وما بعدها. ثم ذكر ممن أسلم عند الفتح وما بعد ذلك.

وقد فصل في سير الخلفاء الراشدين وذكر فضائلهم وبعض ما روي عنهم من أقوال، وفعل مثل ذلك في بعض بقية العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

ولنتأكد من تحقق الغاية التي سعى إليها ابن الجوزي ننظر في عدد من سير الصحابة لنرى ما الذي رواه عنهم، وما الذي قدمه للقدوة بهم.

لقد صور جهاد الصحابة رضي الله عنهم وثباتهم على الحق، ومن ذلك ما أورده في الترجمة الموجزة لسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما. وقد ذكر فضله بأنه يحب الله عز وجل من قلبه، وذكر استشهاده :

«استشهد سالم مولى أبي حذيفة باليمان اخذ اللواء بيمينه فقطعت، ثم تناولها بشماله فقطعت، ثم اعتنق اللواء، وجعل يقرأ (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم..) إلى أن قُتل.

وهذه الصورة للاستشهاد تذكرنا باستشهاد جعفر بن أبي طالب .

ومن صور استشهاد الصحابة وحبهم للجهاد استشهاد عمير بن أبي وقاص، أخي سعد، الذي روى ابن الجوزي عنه ما كان من شأنه يوم بدر حيث كان يتوارى عن رسول الله ﷺ، فقال له سعد: ما لك يا أخي؟ قال إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع. فبكى عمير، فأجازه رسول الله ﷺ.

صور من زهد الصحابة

لقد شاعت في عصور ما بعد الصحابة صور من الزهد السلبي، ذلك الزهد الذي يقوم على التخفف من متاع الدنيا، والإعراض عنها، والانكفاء على العبادة: صوما وصلاة وذكرا وانقطاعا عن الناس.

هذا المنهج لو اتخذه الصحابة لما انتشر الدين في الأرض، ولا كانت الفتوحات الإسلامية، ولا دخل الناس في دين اللهّ أفواجا.

كان زهد الصحابة رضي اللهّ عنهم زهدا إيجابيا، تجلى بالإيمان باللهّ تعالى، وهجر ما كان عليه قومهم من الشرك، وسيئ الأخلاق. ودفعهم هذا الزهد إلى احتمال الأذى في سبيل اللهّ، وهجر الديار، فهاجر منهم إلى الحبشة مجموعة، ومنهم من هاجر إليها مرتين، ونال الشهادة منهم جماعة من تعذيب الكفار لهم، ونذكر ياسرا وزوجته سمية، رضي الله عنهما، ثم كانت الهجرة إلى المدينة المنورة، التي تجلى فيها زهد المهاجرين في الوطن الذي نشأوا فيه، والعلاقات التي كانت موصولة فقطعوها، ومنهم من ترك ماله وفدى نفسه

به ليتركه المشركون يهاجر، وقال رسول اللهّ ﷺ في ذلك لصهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه : «ربح البيع أبا يحيى».

وكان من زهد الأنصار أن فسحوا لإخوانهم في ديارهم، كما فسحوا لهم في قلوبهم، فآخوهم، وشاركوهم الديار والطعام والشراب، وصاروا إخوة في اللهّ، لا غرباء ولا ضيوفا.

وكان من زهد الصحابة هذا الإنفاق في سبيل اللهّ، جودا بالمال، رغبة في الأجر العظيم عند اللهّ، فقد كان منهم التجار والزراع والصناع، وكانوا يكسبون المال، لكن ذلك المال كان في أيديهم جاهزا للإنفاق، ولم يستعبدهم، ولم يقعوا في حبه حبا يورثهم الشح القاتل.

وكان الواحد منهم يسمع قوله تعالى:

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

فيجد احدهم أن ما يحبه بستان، فيجعله في سبيل اللهّ.

ويجد الواحد منهم أن ما يحبه بئر عذب الماء، فيجعله وقفا للمسلمين يشربون منه.

ويجد احدهم أحب شيء إليه جارية من جواريه، أو عبدا من عبيده، فيعتقه في سبيل اللهّ.

وكان من زهد الصحابة هذا الجود بالنفس وهو أعلى درجات الجود، فكانوا يخوضون المعارك، يقاتلون المشركين، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وكان الواحد منهم حريصا على نيل الشهادة، فالموت في سبيل الله أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ونستذكر أبا أيوب الأنصاري، رضي الله عنه،ذلك الشيخ الذي جاوز الثمانين يخرج مجاهدا في سبيل اللهّ، ويموت على أسوار القسطنطينية.

تلك ألوان من الزهد نجد لها العشرات والمئات من الأمثلة في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، وقد كان زهدا إيجابيا، قاموا فيه بدورهم في الحياة، وحملوا الأمانة التي ألقاها الرسول ﷺ على كواهلهم حين قال:

«ألا هل بلغت اللهم فاشهد»

وجعل من مسؤولية الحاضر أن يبلغ الغائب.

زهد الصحابة والضبط النبوي

كان من مقاصد ابن الجوزي في كتاب صفة الصفوة جمع كتاب في أخبار الصالحين يكون دواء للنفوس، بتحقيق اليقظة والتزود بالعمل الصالح. وأولى من يقدم بعد رسول الله ﷺ، هم تلامذته الذين كانوا جيلا قرآنيا فريدا، رباه النبي ﷺ على عينه، فهم النماذج المنصوبة أمام المسلمين في سائر العصور.

وقد رأينا بعد عصرهم شيوع مفاهيم ومناهج للزهد خرجت به عن المفهوم النبوي، والتطبيق الصحابي، ولم يعد مسلكا فرديا، بل صار طريقة تؤخذ عن الشيوخ، وتشيع في المجتمعات الإسلامية،.

وقد ظهرت بعض النوازع نحو ذلك الزهد السلبي في عهد الرسول ﷺ فضبطها، ووجهها، وردها إلى الجادة، ومن ذلك ما كان من حال عثمان بن مظعون ،رضي الله عنه، الذي كان يقوم الليل، ويصوم النهار، وأعرض عن زوجته حتى ظهر ذلك على حاله، ولفت نظر السيدة عائشة رضي الله عنها فذكرت الأمر لرسول الله ﷺ فقال له:

«يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا أفمالك فيّ من أسوة، فو الله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأنا».

ولنقف عند هذا القول القاعدة في السلوك:

«إن الرهبانية لم تكتب علينا»

وكأنه يقول لعثمان بن مظعون: إن استغراقك في العبادة استغراقا ينسيك الحقوق الأخرى الواجبة عليك في الدنيا هو باب من «الرهبنة»، والرهبنة ليست من الإسلام.

وهذا الأمر يتجلى كذلك في موقف النبي ﷺ من الثلاثة الذين جاؤوا إلى بيته في غيابه، فسألوا عن عبادته، فكأنهم رأوها أقل مما يحبون أو يتوقعون، وعللوا ذلك بأنه رسول الله، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه، فتعاهدوا على أمور:

فقال أحدهم: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال الثاني : وأنا أقوم الليل ولا أنام.

وقال الثالث: وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج.

وهي كما نرى عبادات، أو مساعدات على العبادة، ولكنها باب من أبواب الرهبانية، وكان موقف النبي ﷺ منها حازما حين دعاهم، وسألهم عما قالوا، وبين لهم أن ما أرادوه مخالف لسنته ومنهجه، فهو يصوم ويفطر، ويقوم ويرقد، ويتزوج النساء،

وقال: «فإن ذلك من سنتي، فمن ترك سنتي فليس مني».

المنهج النبوي في الزهد هو المنهج المطلوب، وهو منهج متوازن، يعطي كل ذي حق حقه، فللبدن حق، وللأهل حق، وللضيف حق :

«فأعط كل ذي حق حقه».

وقد يجد من يريد الخروج عن هذا المنهج المتوازن نزوعا «فرديا» لدى بعض الصحابة هنا أو هناك، ولكن ذلك النزوع لم يتحول إلى منهج له طريقة وشيخ واتباع بل ظل أمراً «فرديا» له علاقة بالتوجه والطبيعة الفردية والشعور الفردي للعلاقة بالله سبحانه، ذلك الشعور الذي يغلب عليه الترهيب بدلا من الترغيب فيتولد في النفس قلق يزعج النفس، ويكفها عن بعض طيبات الدنيا.

نماذج من زهد الصديق

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة نماذج من زهد الصحابة، ولنبدأ بأبي بكر، رضي اللهّ عنه، خليفة رسول اللهّ ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار.

وها هو يذكر لنا زهده في الحياة ورغبته في فداء النبي ﷺ بنفسه، ومن ذلك ما رواه عن أنس رضي الله عنه: قال: لما كان ليلة الغار، قال أبو بكر: يا رسول اللهّ، دعني أدخل قبلك، فإن كان حية أو شيء كانت لي قبلك. قال: ادخل، فدخل أبو بكر، فجعل يلتمس بيديه، كلما رأى جحرا قال بثوبه فشقة، ثم ألقمه الجحر، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع. قال: فبقي جحر فوضع عقبه عليه. ثم أدخل رسول اللهّ ﷺ، فلما أصبح قال له النبي ﷺ، فأين ثوبك يا أبا بكر؟ فأخبره بالذي صنع، فرفع رسول اللهّ ﷺ يديه وقال: اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة، «فأوحى اللهّ عز وجل إليه إن اللهّ تعالى قد استجاب لك».

فإن صح هذا الخبر، فهو نموذج من نماذج الفداء بالنفس لرسول اللّٰه ﷺ، وهو أمر غير مستغرب من أبي بكر، رضي اللّٰه عنه، ولا من الصحابة رضي اللّٰه عنهم.

ومن زهد أبي بكر رضي اللّٰه عنه، الجود بالمال جودا سبق به غيره من الصحابة. وها هو عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه، يروي شيئا من ذلك. قال: أمرنا رسول اللّٰه ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما. قال: فجئت بنصف مالي. قال: فقال لي رسول اللّٰه ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم اللّٰه ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا.

وهذا لون من ألوان الزهد الإيجابي والتنافس فيه، وهو الإنفاق في سبيل اللّٰه، ولا يعني أن أبا بكر رضي اللّٰه عنه قد ترك أهله بلا شيء، فهو تاجر، والتاجر يأتيه رزقه كلما تحرك في السوق.

ومن ألوان الزهد المرتبط بالمال إنفاقه في إعتاق الرقاب في سبيل اللّٰه، وكان لأبي بكر رضي الله عنه في ذلك باع طويل، وممن أعتقهم في سبيل اللّٰه،

بلال بن رباح ،رضي الله عنه، اشتراه من سيده، وهو مدفون في الحجارة تحت ألوان العذاب في حر الشمس، ودفع فيه خمس أواق ذهبا. فقال له المشرك سيد بلال: لو دفعت فيه أوقية لبعناك إياه، فقال: لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذته.

وهنا نرى كيف تم تسخير المال المكتسب من التجارة، في سبيل الله، إنفاقا في الجهاد، ولكفاية المحتاجين، ولعتق الرقاب. ولو لم يكن لدى أبي بكر وغيره من المسلمين مال، ولو تركوا الدنيا وقعدوا فمن أين تسير مصالح المسلمين وكيف يقوم بعضهم ببعض؟.

وقد شهد رسول الله ﷺ لأبي بكر فقال:

«ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر»

فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله..

ولا ينبغي لمتمسك بالجزئيات أن يقف على أقوال تنسب إلى الصديق وروى بعضها ابن الجوزي، يعمد بعض أهل الزهد السلبي إليها ويتخذونها

وسيلة إلى ترك الدنيا، وينسون مسيرة أبي بكر كلها من إسلامه حتى وفاته، ومن ذلك قوله:

«لوددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن»

وقوله: «يا ليتني شجرة تعضد ثم تؤكل».

فإن صحت هـذه الأقـوال فإنهـا ليسـت مستمسـكا لمـن يريـد الزهـد السلبي.

نماذج من زهد الفاروق

الفاروق عمر بن الخطاب،رضي الله عنه، هو ثاني من ولي أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ، لما أسلم عز الإسلام، وهاجر جهرا، وشهد بدرا وأحدا، والمشاهد كلها.

وهو أول خليفة دعي بأمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ للمسلمين، وأول من جمع الناس على صلاة التراويح، وأول من عسَّ في عمله «أي تفقد الرعية في الليل»، وحمل الدرة وأدب بها، وفتح الفتوح، ووضع الخراج، وحصر الأمصار، واستقضى القضاة، وفرض الأعطية.ذلك بعض ما ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة من مناقب عمر رضي الله عنه.

وكان عمر من الزاهدين، على ما كان في عصره من فتوح، وما يسر الله تعالى على يده للإسلام والمسلمين من خير.

كان عمر من الزاهدين، لكنه كان الزهد الإيجابي فهو لم يطغ بما تحقق في عهده من هزائم للروم، وزوال لدولة الفرس، وامتداد لدولة الإسلام.

وكان من زهده أن يتعاهد امرأة عجوزا عمياء مقعدة يأتيها في الليل فيصلح أمرها، ويرعى شؤونها.

وفي عام الرمادة كان إذا أمسى أتى بخبز قد فُت في الزيت فيأكله.

وفي يوم من الأيام نحر جزور، فأطعم منه الناس، وجاءه من تولى الذبح والطبخ بقدر فيه من السنام والكبد، رغبة في أن يأكل منه أمير المؤمنين، ويصلح بعض شأنه، فماذا كان موقفه؟

قال: بئس الوالي أنا أن أكلت أطيبها، وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام،

فأتي بخبز وزيت، فجعل يكسر الخبز بيده ويضعه في الزيت، وأمر خادمه «يرفأ» أن يذهب بالجفنة إلى قوم في أقصى المدينة لم يتفقدهم منذ ثلاثة أيام.

أليس هذا من الزهد في المنصب واستغلاله للصالح الفردي؟

أليس هذا زهدا في طعام يذهب سريعا لكن يبقى أثر الاستئثار فيه في النفس وفي التاريخ؟

كان عمر رضي اللهّ عنه خليفة، وتحت يده بيت المال، وآلت إليه كنوز كسرى، وخيرات بلاد قيصر، فكيف كان حاله مع ذلك كله؟

هل تحول إلى قيصر أو إلى كسرى؟

خطب الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.وقد أشفقت عليه ابنته أم المؤمنين حفصة، فقالت: يا أمير المؤمنين، لو اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك، فقد وسع اللهّ من الرزق، وأكثر من الخير.

فقال: إني سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول اللهّ ﷺ يلقى من شدة العيش، وكذلك أبو بكر؟ فما زال يذكره حتى أبكاها،

فقال لها: أما واللهّ لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك عيشهما الرخي.

إنه زهد القادر الذي كان ينظر إلى الدار الآخرة والأجر فيها، فأين هذا مما شاع من بعد من مفهوم سلبي للزهد، هجر أصحابه الدنيا، وعطلوا عمارة الأرض، وهي غاية تتحقق من خلالها تجليات الأسماء الحسنى على يد هذا الإنسان المستخلف في الأرض. وذلك ما لنا عنه حديث من بعد، ونحن نستعرض صور الزهد التي أوردها ابن الجوزي في كتاب صفة الصفوة لأجيال جاءت بعد عهد الصحابة.

نماذج من زهد عثمان بن عفان

عثمان بن عفان،رضي الله عنه، الخليفة الشهيد، الذي كان ضحية فتنة أصابت المسلمين، فطاشت لها العقول، بعد أن سرت في الأمصار، ودار بها أعداء للإسلام يوقدون نارها، لعلهم يقوضون هذا البنيان الصاعد، الممتد في الآفاق، تخفق عليه راية التوحيد.

عثمان بن عفان، الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين. حدثنا عنه ابن الجوزي في صفة الصفوة، وأورد لمحات من حياته، ونحن نتلمس ملامح الزهد فيها.

كان عثمان رجلا تاجرا، أنعم اللهّ تعالى عليه بالمال الوفير. فكيف كان حاله مع المال؟.

لقد وقف ماله للهّ تعالى، فما دعي إلى باب من الإنفاق فأحجم عنه، وها هو وقد حاصره أهل الفتنة في نهاية حكمه يشرف من قصره فينادي في المسلمين يذكرهم ببعض ما قدم من خير، ومن ذلك قوله:

«انشد بالله من سمع رسول الله ﷺ، قال: من يوسع لنا بهذا البيت في المسجد ببيت له في الجنة فوسعت به المسجد».

وهذا باب من أبواب الخير سخر فيه عثمان ماله، وهو توسعة المسجد النبوي.

وقال مناشدا من سمعه :

«وأنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة قال: من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ فجهزت نصف الجيش من مالي» .

وهذا باب ثان من أبواب الخير أنفق فيه عثمان ماله، وفي هذا الإنفاق تفصيل ذكره ابن الجوزي: عن عبد الرحمن السلمي قال: خطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة،

فقال عثمان: علي مئة بعير بأحلاسها وأقتابها.

ثم حث فقال عثمان: علي مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها،

قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث

فقال عثمان: علي مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها،

فرأيت النبي ﷺ يقول بيده يحركها: ما على عثمان ما عمل بعد هذا؟

إننا امام نموذج من المسلمين يقدم ماله في سبيل الله، ولا تشح نفسه به، ولا يستكثر شيئا يدفعه، ونجده يضع المال في كل وجه ينفع المسلمين، ومن ذلك أنه اشترى بئر رومة، وكانت بئرا طيبة الماء، يباع ماؤها للناس، فاشترى عثمان البئر وجعلها في سبيل اللهّ.

ومن زهد عثمان رضي اللهّ عنه، هذا التواضع في حياته، فقد كان من أعظم حكام زمانه، امتدت الدولة في زمانه شرقا وغربا وشمالا، ومع ذلك كان يقيل في الظهيرة أحيانا في المسجد، ويقوم وأثر الحصى في جنبه، ويجيء الرجل فيجلس إليه، يجلس مع الناس كأنه أحدهم، لا يستعلي عليهم بخلافة ولا بمال.

ويروي ابن الجوزي عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

إنها طيبة النفس، وتواضعها، والزهد في متاع الحياة الدنيا مع كثرته في يده.

ومن زهد عثمان رضي الله عنه في الدنيا كثرة صيامه، حتى إنه يوم قتله المبطلون كان صائما، ولقي اللهّ شهيدا صائما.

إنه نموذج آخر للزهد الإيجابي، بالقيام بالدور المطلوب في الدنيا:

تاجرا كثير المال،

منفقا في سبيل اللهّ،

خليفة للمسلمين،

يسعى جهده في رعاية أمورهم، ثم يقيم علاقته مع ربه علاقة يرجو بها ما عنده ويدرك حقيقة الدنيا ومتاعها الزائل.

نماذج من زهد علي

علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ابن عم رسول الله ﷺ، آخاه وقال له:

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي من بعدي».

وهو الذي نال شرف مصاهرة النبي ﷺ بفاطمة الزهراء،عليها السلام، أم الحسنين، سيدة نساء هذه الأمة.

كان علي إماما في الزهد، وصفه ضرار بن ضمرة فكان مما قال: «يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته،

كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة،

يقلب كفه ويخاطب نفسه،

ويعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشُب،

كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه».

إنه وصف للخليفة الراشد الرابع، الذي تولى الخلافة وأمور المسلمين في هرج ومرج، قبلها إنقاذا للمسلمين من حالة الفوضى التي عمت البلاد، وضربت دار الخلافة، وذهب خليفة المسلمين من أثرها شهيدا.

يذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة ملامح من زهد أبي الحسن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه،فها هو يأتيه خازن بيت المال يقول له: امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء «أي من ذهب وفضة».

فهل أحس بالزهو، واتخذ ذلك وسيلة للإفساد والعلو؟

لا، بل قام متكئا على خازن بيت المال، وذهب إلى بيت المال،

وقال: عليّ بأشياخ الكوفة،

فنودي في الناس، فأعطى جميع ما في بيت المال، وزعه على الناس، لم يستأثر به هو وأهل بيته، فهو مال المسلمين، وفي الوقت الذي كان يعطي هذا

العطاء كان لا يمدّ يده إلى مال المسلمين. دخل عليه احد أصحابه في قصر الخورنق، وهو يرعد من البرد فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبا، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟

فقال علي: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئا، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي، أو قال: من المدينة.

وها هو يدخل السوق ليشتري قميصا، وهو يحاول التخفي حتى لا يعرفه البائع، وبكم كان يشتري القميص؟ بثلاثة دراهم.

فلما عرفه البائع لم يشتر منه، وذهب إلى غلام فاشترى منه ثم جاء أبو الغلام فعرف المشتري، وجاءه بدرهم.

وقال: ثمن قميصنا درهمان، وهذا الدرهم لك،

فقال علي: باعني ابنك برضاي وأخذت الثوب برضاه، ولم يأخذ الدرهم.

وكان يلبس من الثياب الغليظ، ولا يحب التنعم.

ويذكر ابن الجوزي أن عليا رضي الله عنه، استعمل رجلا من ثقيف على مدينة عكبر، ودعاه إلى الغداء، فجاء فلم يجد حاجبا، ووجد عليا جالسا وعنده قدح وكوز فيه ماء، وكان غداؤه سويقا «أي شعيرا مطحونا» وضعه في الماء، فشرب منه وسقى ضيفه.

فقال له ذلك الضيف: يا أمير المؤمنين، أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك؟

لم ير هذا الضيف في بيت الخليفة ألوان الطعام والشراب، بل رأى الزهد في الدنيا، والنظر إلى الآخرة. كان باستطاعة علي رضي الله عنه أن يأكل أطيب المأكل، وبلبس ألين اللباس، لكنه كان يؤثر الآجل، وينظر إلى الدنيا دارا للابتلاء قصيرة المقام. كان زهده زهد القادر لا زهد العاجز، وزهده لم يمنعه من القيام بأعباء الخلافة، ولم يجعله ينسحب من الحياة ويعيش على هامشها.

نماذج من زهد المبشرين بالجنة

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة الخلفاء الراشدين الأربعة، وأتبعهم بذكر بقية العشرة المبشرين بالجنة،رضي الله عنهم أجمعين. وأورد ملامح من زهدهم، وعلينا أن نستذكر أنهم جاهدوا في سبيل اللهّ، وأدوا ما ائتمنهم عليه رسول اللهّ ﷺ من الدين فبلغوه لمن بعدهم.

وصار بعضهم من أصحاب الأموال بما نالوه من أموال الفتح، أو نالوه من التجارة، وضرب عدد منهم الأمثلة الرائعة في التصرف بالمال في الوجه الذي يرضي اللهّ تعالى، ولم يحبسوه، ولم تشح به نفوسهم.

ها هو طلحة بن عبيد اللهّ رضي اللهّ عنه، يدخل على إحدى زوجاته فتراه مهموما، فتسأله عن سبب غمه؟

فيقول: المال الذي عندي قد كثر وقد كربني!!

وهل تكون كثرة المال سببا للهم والغم؟

نعم هي كذلك عنده، وماذا كان رأي زوجته؟

قالت: اقسمه، وأنفقه في سبيل اللهّ،

فقسمه ووزعه، حتى لم يبق من ذلك المال شيء.

وقد سئل خازن المال لدى طلحة رضي الله عنه عن مقدار ما وزعه فقال: أربعمئة ألف.

واشترى عثمان رضي اللهّ عنه منه أرضا بسبعمئة ألف، فلما رأى المال بين يديه استكثره، ونظر فيما يفعله به فأمر خدمه أن يجعلوه في صرر، فما طلع الفجر وعنده من ذلك المال شيء.

كان طلحة ،رضي الله عنه،ذا مال ينمو بالتجارة والزراعة، وكان ما يجتمع عنده منه كثير، وكان يرى أنه بإنفاقه المال في وجوه الخير يدخر لنفسه عند ربه، ويؤدي حقوق المسلمين من ذوي قربى وجيرة وأهل بلد.

وكان الزبير بن العوام رضي اللهّ عنه مثله، فقد كان له ألف مملوك يؤدون الضريبة إليه، لا يدخل منها بيت ماله درهم، بل كان يتصدق بها، يفعل ذلك كل ليلة.وباع دارا له بستمئة ألف، ورأى من حوله أنه غبن في البيع، فرد عليهم: لم أغبن، وجعل ثمنها في سبيل اللهّ، أنفقه في وجوه الخير.

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي اللهّ عنه من أصحاب المال الكثير، وكان كثير الإنفاق في سبيل اللهّ، باع أرضا له لعثمان بن عفان رضي اللهّ عنه بأربعين ألف دينار، فماذا فعل بهذا المال؟

قسمه في بني زهرة، قرابته وذوي رحمه، وفي فقراء المسلمين، ونال أمهات المؤمنين من نصيب، وقد دعت له أم المؤمنين عائشة ،رضي اللهّ عنها فقالت: سقى اللهّ ابن عوف من سلسبيل الجنة.

وتصدق ابن عوف رضي الله عنه على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، وبلغ أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسئة فرس في سبيل اللهّ تعالى، ثم حمل على ألف وخمسئة راحلة في سبيل اللهّ تعالى.

وكان عامة ماله من التجارة، كان يسعى في الأرض يبتغي من فضل اللهّ، وكان يعرف في المال حق اللهّ، ولا تغره الحياة الدنيا، ويستذكر ما كان عليه حال المسلمين في مرحلة الدعوة قبل الدولة، وفي مرحلة الجهاد والتعب قبل جني ثمرات الفتوح.

أتي عبد الرحمن بن عوف،رضي الله عنه، ذات يوم بطعام وكان صائما، فبكى، واستذكر مصعب بن عمير ،رضي الله عنه، الذي كفن في بردة قصيرة إن غطت رأسه بانت رجلاه، وقال: ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

وكان من زهده تواضعه فقد كان لا يُعرف من بين عبيده ولا يتميز عليهم.

هذه بعض الصور الحية من زهد الصحابة الكرام، العشرة المبشرين بالجنة، وهو زهد إيجابي، فقد كانوا يؤدون وظيفتهم في الحياة ولكنها لا تغرهم، ولا ينسون الدار الآخرة.

زهد الصحابة والجهاد

أعظم درجات الزهد الجود بالنفس في سبيل اللهّ تعالى، ذلك أن المجاهد الذي يقبل على الموت يكون قد ترك الدنيا كلها وراءه، بما فيها من العلائق التي تربط النفس بالدنيا، ومن الشهوات التي زينت للناس :من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث.

ونجد صورا عجيبة في حياة الصحابة يرويها ابن الجوزي في صفة الصفوة تمثل إقبالهم على الجهاد.

من ذلك ما أورده عن عبد اللهّ بن جحش رضي اللهّ عنه، فها هو قبيل اللقاء مع المشركين في غزوة أحد يتمنى هذه الأمنية في دعاء دعاه:

«اللهم إنا لاقو هؤلاء غدا، وإني أقسم عليك لما يقتلوني ويبقروا بطني ويجدعوني، فإذا قلت لي: لم فُعل بك هذا؟ فأقول: اللهم فيك، فلما التقوا، فعل ذلك به».

وأي زهد في الدنيا ورغبة في ما عند اللهّ أعظم من هذا؟

وها هو مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان من أنعم الناس عيشا قبل إسلامه، فلما أسلم زهد في الدنيا. وكان حامل اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون وتضعضعت صفوفهم أمام التفاف فرسان المشركين أقبل نحوه ابن قميئة وهو ثابت رافع اللواء، فضرب يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنا عليه، فضربها فقطعها، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يردد الآية نفسها، ثم حمل ابن قميئة على مصعب بالرمح فأنفذه من جسده.

ومن حرص الصحابة على الجهاد وزهدهم في الدنيا رغبة في الجنة ونعيمها ما كان من بعض شبابهم الذين كانوا على صغر عمرهم يحاولون الظهور في صورة أكبر حتى لا يمنعوا من المشاركة في المعركة.

ذكر ابن الجوزي عن عمير بن أبي وقاص أخي سعد، رضي الله عنهما، أنه كان يتوارى قبيل الخروج إلى بدر عن رسول الله ﷺ،

فقال له سعد: ما لك يا أخي؟

قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب لعل الله يرزقني الشهادة.

فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره ورده، فبكى، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أجازه وسمح له بالخروج معه، فنال الشهادة في بدر، وكان عمره ستة عشر عاما،وهذا الصحابي الشهيد نموذج حي لشباب الإسلام عبر العصور، الذين يقبلون على الجهاد حبا في الشهادة، ويزهدون في الدنيا.

وها هو زيد بن الخطاب أخو عمر، رضي الله عنهما، يأخذ من أخيه درعه بعد أن أقسم عليه يوم أحد، ثم ينزعها، فيسأله عمر عن ذلك، فيقول: إني أريد الشهادة كما تريدها، إنه حب الجهاد والرغبة في الاستشهاد، ولم تتحقق الشهادة لزيد في أحد بل نالها في يوم اليمامة في قتال المرتدين، فقد انكشف المسلمون، فثبت زيد وأخذ يصيح بأعلى صوته وهو يحمل الراية: اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة، وضارب بسيفه حتى قتل ووقعت الراية منه فأخذها سالم مولى أبي حذيفة.

ومن أمثلة الزهد في الحياة وحب الجهاد والاستشهاد ما ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة عن أبي عقيل عبد الرحمن بن ثعلبة الذي شهد بدرا

والمشاهد كلها مع رسول اللهّ ﷺ، وشهد اليمامة وكان أول من جرح بسهم فوضع مع الجرحى ليعالج، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون نادى معن بن عدي يا للأنصار، اللهّ اللهّ، والكرة على عدوكم. فلما سمع ذلك أبو عقيل نهض يريد القتال مع الأنصار، فقيل له أنت جريح، فقال: أنا من الأنصار وسأجيب المنادي ولو حبوا، وأخذ السيف بيمينه ثم نادى في الأنصار: كرة كيوم حُنين، وقاتل المرتدين حتى قطعت يده المجروحة فوقعت إلى الأرض، وأصيب بأربعة عشر جرحا ونال الشهادة.

نماذج من زهد الصحابة في المال

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة ألوانا من زهد الصحابة،رضي الله عنهم، ومن ذلك حبهم لإنفاق المال، وإيثارهم الآخرين على أنفسهم به. وقد رأينا من قبل صورا من ذلك في إنفاق المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم.

ومن الأمثلة ما أورده ابن الجوزي عن معاذ بن عفراء رضي اللهّ عنه، وهو بدري، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخصّ البدريين بأمور منها: أنه كان يأمر بحلل خاصة لتنسج لهم مميزة عن غيرها، وبعث إلى معاذ بحلة منها، فأرسل بها إلى السوق فبيعت بألف وخمس مئة درهم، واشترى بها خمس رقاب أعقتها في سبيل اللهّ. ولما رأى ذلك وازن بين أن يلبس تلك الحُلة، وأن ينفق ثمنها في سبيل اللهّ فقال: إن امرءا اختار قشرين «أي ثوبين» يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأي «أي ضعيف الرأي».

إنه الإدراك الحقيقي لقيمة الأشياء والسعي إلى الباقي وإيثاره على الفاني، وقد بلغ الأمر عمر بن الخطاب، ووصله أن معاذا لا يلبس الحلة التي يرسلها إليه، فبعث إليه بحلة غليظة تساوي مئة درهم، ولعله ظن أنه يتورع

عن لبس تلك الحلة البدرية، فلما وصلته تلك الحُلة عجب من أمر عمر، ثم ذهب إليه مستطلعا،

فقال عمر: كنا نبعث إليك بحلة مما نتخذ لك ولإخوانك فبلغني أنك لا تلبسها،

فقال معاذ: يا أمير المؤمنين إني وان كنت لا ألبسها فإني أحب أن يأتيني من صالح ما عندك،

فأعطاه عمر الحلة البدرية، ولعله مضى على سنته في بيعها وإنفاق ثمنها في سبيل اللهّ.

ومن زهد الصحابة في المال، وإنفاقهم له في سبيل اللهّ ما كان من أبي طلحة، رضي الله عنه،وكان أبو طلحة أكثر الأنصار مالا، وكان أحب ماله إليه «بيرحاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها، ولما نزل قوله تعالى:

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾

قال أبو طلحة لرسول اللهّ ﷺ: «إن أحب أموالي إلي«بيرحاء»، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند اللهّ، فضعها يا رسول اللهّ حيث أراك اللهّ.
فقال النبي ﷺ: بخ، وذلك مال رابح، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين،
فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول اللهّ،
فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.
وهنا يلفت النظر أمران:
موقف أبي طلحة رضي اللهّ عنه حين سخت نفسه بهذه الأرض التي كانت أحب ماله إليه،
وموقف الرسول ﷺ الذي جعلها صدقة وصلة لأقارب أبي طلحة، وهو أمر ينبغي أن يتنبه إليه المنفقون.
كان منهج الصحابة رضي الله عنهم في التعامل مع المال يقوم على حب الإنفاق في سبيل اللهّ وإيثار ما عنده على ما يفنى، ومما يدل على ذلك هذه الرواية التي أوردها ابن الجوزي وفيها أن عمر بن الخطاب رضي اللهّ عنه وضع أربعمئة دينار في صُرة، وطلب من غلام له أن يذهب بها إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح،رضي الله عنه، وأن ينظر ما يصنع بها. ففعل الغلام ما طلبه

عمر،رضي الله عنه، فرأى ابا عبيدة يجعل المال في صُرر ويبعث بها إلى أهل المدينة، حتى نفدت كلها.

وفعل عمر رضي الله عنه،مثل ذلك مع معاذ،رضي الله عنه، ففعل معاذ ما فعله أبو عبيدة، وسمع الغلام امرأة معاذ تقول له: ونحن واللهّ من المساكين فأعطننا، فكان ما بقي ديناران، فأعطاها إياهما.

ورجع الغلام إلى عمر رضي الله عنه،فأخبره بما رآه، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

وقد يجد المرء في نفسه شيئا من بعض تفاصيل هذه الروايات، فيقول: أليس أهل المرء أولى بالإنفاق من غيرهم؟ ويبدو لي أن في بعض الروايات نقصا في التفاصيل تثير بعض الإشكالات.

إن مثل هذه النماذج من النماذج الصعبة التي لا تشيع في الناس، وليست مطلوبة منهم جميعا، والمطلوب حين وجودها ألا تكون سلبية إلى الحد الذي يعطل الحياة وعمارة الأرض، وذلك ما فعله الصحابة الكرام الذين كانوا نماذج طيبة أدت ما عليها، وآثرت ما عند الله تعالى.

زهد الصحابة والكرم

من ألوان الزهد التي أوردها ابن الجوزي في صفة الصفوة ما ذكره من كرم الصحابة رضي الله عنهم. والكرم يعني أن النفس لم تتعلق بالمال تعلقا يمنعها من إنفاقه، ويجعلها تبخل به، وذلك من الزهد بالمال، لأن من حرص على شيء احتفظ به، ومن زهد بشيء بذله.

وقد أورد ابن الجوزي من كرم الصحابة صورا ذكرت بعضها في الحديث عن الصحابة والمال، وما أذكره هنا متمم له.

لقد كنت حينا من الدهر أجد في نفسي سؤالا غريبا حين اقرأ عن حال النبي ﷺ وما ذكر عن الجوع الذي أصابه في المدينة، وما يروى أن النار لم تكن توقد في بيوته عدة أشهر، وكنت أسأل:

أين كان الصحابة القادرون من ذوي المال عن رسول الله ﷺ ؟

والجواب هو أن الهدايا من ألوان الطعام كانت تتوارد على بيوت النبي ﷺ مما كان يغنيه وأهل بيته عن الطبخ، وأن ما ذكر من جوع إنما كان عارضا ولم يكن أمرا دائما.

ومن ألوان الكرم التي نالت النبي ﷺ ما كان من سعد بن عبادة،رضي الله عنه، الجواد الذي كانت له جفنة (وعاء يوضع فيه الطعام) تدور كل يوم مع النبي ﷺ حيث كانت ليلته مع زوجة من أزواجه.

وكان من كرم سعد رضي الله عنه مع أهل الصفة الذين كانوا يأوون إلى المسجد النبوي، وهم المسلمون من خارج المدينة، ولم يكن لهم مال يستأجرون به بيوتا خاصة بهم، وكانت إقامتهم في المسجد لتعلم الدين، كان من كرم سعد ما فاق به غيره من أهل المدينة الذين كان يأخذ أحدهم كل ليلة الرجل والرجلين والخمسة ليعشيهم، وأما سعد فكان يأخذ منهم ثمانين رجلا كل ليلة يمدّ لهم الطعام.

وعلى منهج سعد في الكرم سار ابنه قيس الذي خرج مع المسلمين في سرية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح،رضي الله عنه، وأصاب السرية وكان عددها ثلاثمئة جوع شديد، فتحركت نوازع الكرم لدى قيس، فنادى من يشتري مني تمرا بجزر «جمع جزور» يعطيني الجزر هنا وأعطيه التمر في المدينة.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في السرية فتعجب من حاله، إذ لم يكن له مال خاص به إنما هو مال أبيه، ووجد رجلا من جهينة يستجيب له

بعدما عرف من هو ومن أبوه، وطلب شهودا، وسئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يشهد فلم يشهد على تصرفه بمال ليس له، ولكن الجهني قال: والله ما كان سعد ليخني بابنه (أي ليبطل فعله) في سفَّة من تمر، وأرى وجها حسنا وفعالا شريفا.

واخذ قيس الجزر ونحر للجيش كل يوم جزورا على ثلاثة أيام . ونهاه أبو عبيدة في اليوم الرابع، فلما بلغ سعد بن عبادة ما أصاب الجيش من مجاعة أراد أن يرى كيف تصرف ابنه، فقال له:

نحرت لهم ثلاثا حتى نهاني أميري فقلت له:

أبي يقضي عن الأباعد ويحمل الكل، ويطعم في المجاعة، أفلا يصنع هذا لي؟

فكافأه أبوه بأربعة حوائط «أي بساتين» على كرمه، ووفى للجهني ما وعده به ابنه قيس.

ومن ألوان الكرم ما ذكره ابن الجوزي عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما،فيما يرويه عن سلمان بن ربيعة الذي حج مع جماعة من أهل البصرة، وسعى إلى لقاء بعض أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فإذا نحن بثقل عظيم

(أي جمع كبير) يرتحلون ثلاثمئة راحلة، فسألوا عنه فقالوا : هذا لعبد الله بن عمرو، فعجبوا من ذلك، وكان قد بلغهم عنه التواضع، فجاءهم التعليل التالي:

أما المئة الأولى فلإخوانه يحملهم عليها، وأما المئتان فلمن نزل عليه من أهل الأمصار ولأضيافه، فعجبنا من ذلك، فقيل: لا تعجبوا فإن عبد الله رجل غني، وإنه يرى حقا عليه أن يكثر من الزاد لمن نزل عليه.

ووراء هذه الأمثلة كثير من مواقف الصحابة الكرام الدالة على كرمهم وعلى زهدهم بالمال، وعلى إنفاقهم إياه في سبيل الله.

عبد الله بن عمرو وعاقبة التشدد

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، من الصحابة أولي الجلد في العبادة، وقد سار فيها شوطاً بعيداً جعله يتعرض للوم أبيه ولتوجيه النبي ﷺ، وقصته نموذج «للاندفاع الزائد» في العبادة ، وموقف النبي ﷺ نموذج للضبط النبوي الذي لم يلتزم به من بعد أصحاب اتجاه من المسلمين صار لهم في الزهد منهج، واتخذوا الغلو في العبادة طريقة.

وها هو عبد الله يروي قصته بعد ما كبر وعرف ما ينبغي أن يكون عليه الاعتدال في العبادة، فجعل من نفسه عبرة لمن يريد ترك الغلو.

ها هو يخبرنا في ما أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة أن أباه زوجه امرأة من قريش، ويبدو أن هذا الزواج لم يكن عن رغبة منه، وكان مسايرة منه لأبيه. ودخلت الزوجة في حياته، لكنها كانت على هامشها، فلم يلتفت إليها، ولم يقترب منها، وكان شغله الشاغل الصلاة والصوم، وجاء أبوه يتفقد أمره، وسأل كنته عن حالها مع زوجها، فأثنت عليه بما رأت من صلاته وصيامه، لكنها بثت نوعا من الشكوى من تجاهله لها، وإهماله حقها، فقالت:

«خير الرجال أو كخير البعولة من رجل لم يفتش لنا كنفاً ولم يعرف لنا فراشا»

هكذا بلغ بعبد الله الأمر، وفي هذا إهمال لحق الزوجة، وحياة كحياة الرهبان. وتعرض للوم أبيه الذي قال له :

"أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب، فعضلتها، وفعلت.."

.ولم يجد أبوه خيراً من أن يشكوه إلى رسول الله ﷺ، فاستدعاه وسأله عدداً من الأسئلة:

قال :أتصوم النهار؟

قال: نعم.

قال: وتقوم الليل؟

قال عبد الله : نعم.

ولننظر في الميزان الذي وضعه الرسول ﷺوهو منهجه الذي لا ينبغي أن يزيد عليه أحد.. :

«ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ولم ينته إلى هنا التوجيه النبوي الذي يضمن للحياة أن تستمر، وللحقوق أن تؤدى، فها هو يجدد له الصلة بالقرآن الكريم قراءة:

« اقرأ القرآن في كل شهر»

ويأتي جواب عبد الله: إني أجدني أقوى من ذلك،

قال: فاقرأه في كل عشرة أيام،

قلت: إني أجدني أقوى من ذلك.

قال: فأقرأه في كل ثلاث،

ثم وجهه نحو المنهج المعتدل في الصوم :

«صم في كل شهر ثلاثة أيام»

قلت: إني أقوى من ذلك،

فلم يزل في الحوار حتى قال له عليه الصلاة والسلام:

«صم يوماً وأفطر يوما، فإنه أفضل الصيام، وهو صيام أخي داود»

ولما كبر عبد الله، وضعف جسمه عما كان يطيق في شبابه كان يصوم بعض الأيام يصلها ثم يفطر مثلها، وكان يقرأ حزبه من القرآن يزيد أحيانا وينقص أحياناً، وكان يقول وفي قوله درس لكل من جعل الغلوّ في العبادة

منهجه: "لأن أكون قبلت رخصة رسول الله ﷺ، أحب إلي مما عدل به، لكني فارقته على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره".

إن في قصة عبد الله رضي الله عنه درساً بليغاً، وإذا كان قد وجد من رسول الله ﷺ توجيها وصل به إلى الحد الذي جعله يندم في كبره على ترك رخصة رسول الله ﷺ، فقد وجد في المسلمين من سار أشواطاً من بعد في الغلو في العبادة وتعطيل الحياة، ولم يلتزم الضوابط النبوية.

زهد عمير بن سعد

وقفنا من قبل على شيء من زهد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وها نحن مع نموذج آخر هو عمير بن سعد رضي الله عنه، الذي ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حمص .

وقد سار في ولايته سيرة أثارت شكوك الخليفة، فقد مر عليه عام كامل لم يأته منه خبر، فقال عمر رضي الله عنه لكاتبه: اكتب إلى عمير، فو الله ما اراه إلا قد خاننا .فكتب:

" إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا."

ولا يخفى ما في هذا الكتاب من شك وقسوة واستدعاء عاجل، ومبعث ذلك أن خطوط الاتصال كانت مقطوعة بين عمير والخليفة، ولم يبعث عمير رضي الله عنه بأي شيء من المال الذي اجتمع له ليوضع في بيت مال المسلمين.

ولم يخيب عمير ظن الخليفة ووجدها فرصة مناسبة للاستعفاء من العمل، فلم يكن ممن يطمحون إلى المناصب، ولا الذين تزهو نفوسهم بها.

وقد جمع متاعه الذي كان مكونا من: جرابه (أي كيس يضع فيه طعامه) وقصعته التي يأكل بها، ودواته التي هي للشرب والوضوء، وعنزته (أي عصاه التي يتوكأ عليها) وأقبل من حمص إلى المدينة ماشيا، فلما دخل على عمر رضي الله عنه وقد طال سفره، وشحب لونه، واغبر وجهه، وطال شعره، استعظم عمر ذلك، فقال له: ما شأنك؟،

فكان جوابه: ما ترى من شأني؟ ألست تراني صحيح البدن، ظاهر الدم، معي الدنيا أجرّها بقرونها؟

وظن عمر أنه جاء بمال إلى بيت مال المسلمين،

فقال له: وما معك؟

فسرد عليه ما ذكرنا من متاعه الذي حمله معه.

وعجب عمر من حاله

فقال: وجئت تمشي؟

قال: نعم،

قال: أما كان لك أحد يتبرع لك بدابة تركبها؟

قال: ما فعلوا، وما سألتهم ذلك.

ولننظر من يتحدث؟

إنه والي حمص الذي كان بإمكانه أن يعيش أرغد عيش، ويركب أرفه المراكب، لكن متاع الدنيا لم يملأ عينه .

وعجب عمر من ترك المسلمين له يسافر ماشيا من غير انتباه لحاله، فقال: بئس المسلمون خرجت من عندهم.

وجاء موقف عمير مدافعا عنهم على الرغم من تقصيرهم في حقه فقال: اتق الله يا عمر، قد نهاك الله عن الغيبة، وقد رأيتهم يصلون الغداة «أي صلاة الصبح» .

وسأله عمر عن المال الذي جمعه من المسلمين في تلك السنة،

فقال: جمعت صلحاء أهل حمص فوليتهم جباية فيئهم حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه، ولو نالك شيء منه لأتيتك به.

إنه منهج عجيب في الإدارة يستثمر طاقة أهل البلد، ومنهج متفرد في التعامل مع المال برد الأموال التي تجمع من الأغنياء إلى فقراء أهل البلد. وأراد عمر رضي الله عنه أن يجدد الولاية لعمير فأبى،

وقال: لا اعمل لك ولا لأحد بعدك .

إنه الإحساس بثقل المسؤولية، وتبعة الولاية.

واستأذن وذهب إلى بيته قرب المدينة، وبقي في نفس عمر منه شيء، وأراد أن يثبت من حاله، فبعث من ورائه رسولا وأعطاه مئة دينار.

وقال له: إن رأيت شيئا مريبا من أمر عمير فأقبل نحوي، وإن رأيت فقرا فأعطه الدنانير

وذهب رسول عمر ومكث ثلاثة أيام فرأى بؤسا في حياة عمير، يعيش على الشعير، فأعطاه الدنانير،

فصاح: لا حاجة لي فيها، فردها إلى عمر.

فقالت امرأته، وكانت موافقة له في عيشه غير متبرمة :

إن لم تردها فضعها في مواضعها

فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء.

فاستدعاه عمر وأمر له بطعام وثوبين، فرد الطعام، لأن عنده صاعين من شعير يكفيانه، وأخذ الثوبين لامرأته، ولم يلبث أن توفي، وصلى عليه عمر ودفن في البقيع.

وسأل عمر ،رضي الله عنه، أصحابه أن يتمنوا، فأدلى كل بدلوه، أما هو فتمنى رجلا مثل عمير بن سعد يستعين به في أعمال المسلمين لأمانته وحسن إدارته.

زهد سعيد بن عامر

تنوعت أساليب ابن الجوزي في ما يرورده في صفة الصفوة من أخبار من ترجم لهم، وما زلنا مع ما أورده عن الصحابة رضي الله عنهم.

فقد فصّل أحياناً، وأوجز إيجازا قد يثير التساؤل، ويجعل إدراك مرماه من الجوانب المضيئة في حياة المترجم له غير بينة.

ونحن الآن مع ما أورده عن صحابي زاهد تميّز في فهمه وسلوكه، وأتخذ لنفسه في الحياة مساراً غير موروود بكثرة!هو سعيد بن عامر الجمحي، رضي الله عنه استعمله عمر بن الخطاب على حمص، وأراد أن يجعل له راتباً، فلم يرض واكتفى بما كان يناله من العطاء من بيت مال المسلمين، وقال: "قد جعل الله في عطائي ما يكفي دونه".

وكان سعيد بن عامر من المتقللين من الدنيا، فكان إذا جاءه عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم الذي يكفيهم، وتصدق بما زاد على ذلك.

وكانت امرأته تسأله عن فضل العطاء، وكأنما كانت تريد أن تتمتع ببعض ما كان يتمتع به غيرها من نساء المسلمين الذين ساروا على منهج

مختلف عن منهج سعيد، فكان يقول لها: قد أقرضته، وفي كلامه تورية حيث أشار به إلى قوله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) .

ولعل زوجته قد شكت حالها إلى بعض من تعرف، فجاؤو سعيداً وذكروه بأن لأهله عليه حقاً، ولأصهاره عليه حقاً،فماذا كان جوابه؟

كان جواب من أشاح بعينه عن الدنيا، وبرزت له الآخرة عياناً؟

فقال: ما أنا بمستأثر عليهم،

أي أنه لم يخصّ نفسه بشيء من المال، ولا بملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين.

وبلغ أمره عمر بن الخطاب، وأنه لا يوقد في بيته نار مدة طويلة، ولعل ذلك كان صدى شكوى من زوجته، فحمل عمر همّه وهمّ أهل بيته، وبعث إليه بمال لعله يحسّن أمر معيشته،

فماذا فعل بالمال؟ أخذه وجعله صرراً وتصدق به حتى لم يبق منه شيئاً، وكان قلبه معلقاً بالحور العين، ولذلك قال بعد إنفاقه المال: "لو أن حوراء أطلعت أصبعاً من أصابعها لوجد ريحها كل ذي روح، فأنا أدعهن لكن؟ فوالله لأنتن أحرى أن أدعكن لهن"!!

وكلامه في ختام حديثه كان موجها إلى زوجته يعقد موازنة بين نساء الدنيا وحور الجنة.

ويبدو لي أن منهجاً مثل منهج سعيد بن عامر يتعب زوجته، مما يجعل الإنسان يقول: إن من اتخذ منهجه فأحرى به أن يدع الزواج ،أو أن يتزوج من ترضى بمنهجه. ذلك أننا نجد في سيرته شدة في العلاقة مع زوجته، ففي رواية أخرى أو لعلها تفصيل للرواية السابقة من إرسال عمر رضي الله عنه للمال، وفي هذه الرواية تحديد بأنه ألف دينار، فلما رأت زوجته ذلك اقترحت عليه أن يشتري بعض المؤونة ويدخر ما يزيد للحاجة.

فكان جوابه أن الأفضل من ذلك أن يعطى ماله من يتاجر به، فيأكلون من الربح ويكون ضمان المال عليه، وقد نوى شيئاً، وفهمت زوجته شيئاً آخر، فقد نوى الصدقة التي يضاعفها الله تعالى أضعافاً كثيرة فاشترى أدماً وطعاماً وغلامين وبعيرين يتاجر الغلامان عليهما، وفرق ذلك في أهل الحاجة والمساكين.

ولما نفد بعض ما في البيت مما اشتراه زوجها طلبت منه أن يراجع التاجر الذي ظنت أن يسعى المال، لأخذ الربح منه، فسكت ولم يجبها وتكرر ذلك

منه حتى آذته بلسانها، فكان يتغيب عن بيته ولا يدخله إلا بالليل، حتى صرح لها بعض أقاربها أن زوجها تصدق بذلك المال فأسفت عليه وبكت.

وتتكرر الروايات في صفة الصفوة عن زهد سعيد بن عامر وتعلقه بالحور العين، وذلك منهج خاص به لم يشاركه فيه كثير من الصحابة الذين أخذوا من طيبات ما أحل الله لهم، وأنفقوا وتصدقوا ولم يضيقوا على أهل بيتهم، لكنه رضي الله عنه كان يعيش في الدنيا والحور العين أمام عينيه فأذهب ذلك من عينه كل لذة لمتاع الدنيا.

الزهد وغياب الضوابط

قدم لنا ابن الجوزي صوراً من زهد الصحابة ومن بعدهم، ولعل الملاحظ في هذا المجال ظهور ألوان من المبالغة في العبادة. والسعي إلى العيش بطرق لم تكن مألوفة في عهد رسول الله ﷺ الذي كان يضبط مسيرة أصحابه.

ولا يخفى أن مسيرة الإنسان في الحياة تنطلق من تصوره، وهناك أنماط من الحياة رآها المسلمون لدى غيرهم من الرهبان و العبّاد في مختلف البلاد، ورأوا منهم المنقطعين عن الناس، والمبالغين في الانقطاع عن الطعام والشراب، و التقلل من طيبات الرزق. ورأوا عليهم آثاراً من خوارق العادات، مما جعلهم يرون في هذه الأنماط خيراً سعوا إلى تطبيقه في حياتهم، وأغفلوا بعض الضوابط النبوية، وغاب عنهم منهج الصحابة.

والمهم في هذا الأمر أن هذه الأنماط من الحياة. والألوان من العبادة لم تكن في معظمها سلوكاً فردياً بل صار بعضها أو كثير منها منهج حياة يقتدى به، وصار هناك شيوخ يتلقى عنهم المريدون منهجهم ويسيرون عليه.

وهناك من يحاول تعليل هذه الظواهر، فنحن نتحدث عن المرحلة التي كان فيها الفاتحون قد أتموا معظم الجهد في الفتوح الإسلامية، وانتشر في كثير من جوانب المجتمع روح ترف خرجت عن المنهج الإسلامي، فكان رد الفعل بهذا المنهج الذي كان ثمرة الاتصال بالأمم الأخرى ورؤية ما لدى عبادها من مناهج الزهد وطريقة الحياة، فرأوا فيها ما يساعدهم على بلوغ ما يتصورونه من رضوان الله تعالى، والفوز بجنته، وانعكس ذلك على تصورهم للحياة، فرأوا منها جانب قصر مدتها وسرعة زوالها، وأنها دار خراب لا تستحق العمران، ونظروا إلى الأجساد باعتبارها مراكب للأرواح فليتعبوها في عبادة الله، ولا بأس أن تكون جرعة العبادة زائدة زيادة مبالغاً فيها، فالعاقبة خير، والجنة دار البقاء، وما عند الله يستحق العناء .

والذي يستحق التنبه إليه والوقوف عنده هو منهج ابن الجوزي في صفة الصفوة الذي جعله كتاباً يقدم فيه سير المصطفين من العبّاد، ليكون في مسارهم قدوة للآخرين، وقد أورد من أحوالهم ما يُستغرب بل ما يستهجن، بل ما لا يصلح أن يكون قدوة، لأن فيه مخالفة للمنهج النبوي الذي أراد به أن تعمر الأرض، وتتجلى فيها أسماء الله تعالى الحسنى بكل تجلياتها، ذلك المنهج

الذي وسّع معنى العبادة من الصومعة والمسجد لتشمل الحياة كلها، في المسجد والسوق، وميدان الجهاد والمزرعة والمصنع.

هذا الفهم نراه يغيب عن حياة كثير من العبّاد الذين جاؤوا بعد عهد الصحابة الكرام، ولا شك أن في حياة هؤلاء غرائب تستوقف النظر، وقد تثير العجب والإعجاب أحياناً مما فعلوه، كما قد تثير الاستهجان والاستنكار.

الزهد في الطعام

روى ابن الجوزي في صفة الصفوة صورا من الزهد في الطعام، تحس من خلالها أن بعض «الزهاد» كأنما حرّموا على أنفسهم ما أحل الله من الطيبات، فأعرضوا عن أكثر الطعام.

والسؤال هو: إذا كان الكسب طيبا، وكان الطعام حلالا، فلماذا يُعرض عنه الإنسان؟ ولماذا خلق الله تعالى الطيبات من النباتات والحيوانات؟

هناك من الزهاد من انقطع عن أكل اللحم : فها هو زياد بن أبي زياد، مولى عبد الله بن عباس لا يأكل اللحم، مع كونه عابدا معتزلا، لا يزال يذكر الله ويلبس الصوف.

وها هو زهير بن محمد بن قمير يقول: أشتهي لحما من أربعين سنة، ولا آكله حتى أدخل الروم فآكله من مغانم الروم .

وقد انتقل إلى آخر حياته إلى طرطوس مرابطا على ثغور الدولة البيزنطية .

ومنهم من ترك أكل الفواكه، فها هو وهيب بن الورد كان لا يأكل الفواكه، وإذا انقضت السنة وذهب موسم الفواكه يكشف عن بطنه وينظر

إليه ويقول: يا وهيب، ما أرى بك بأسا، ما أرى تركك الفواكه ضرّك شيئا.
وها هو فتح بن شحرف بن داود يترك أكل الخبز ثلاثين سنة، مع أنه كان يُطعم الفقراء ومن يزوره من الأصحاب الطعام الطيب.

ويروي ابن الجوزي عن الجنيد أنه كان عشرين سنة لا يأكل من الأسبوع إلى الأسبوع.

وهناك ما هو أعجب من ذلك فها هو أحمد المسوحي يذهب إلى الحج بقميص ورداء ونعل ولا يحمل معه شيئا من الزاد أو أدوات الاستعمال إلا كوزا من زجاج فيه تفاح شامي، ولم يكن يأكل منه، بل كان يقتات بشم رائحة التفاح، وذلك طعامه من خروجه من بغداد حتى وصوله إلى مكة .

ونصل إلى أمر أعجب من كل ما مضى، فها هو الحسن الفلاس الذي كان بشر الحافي أستاذه أو شيخه، وكان سري السقطي يعظم أمره،

كان حسن الفلاس لا يأكل إلا القمامة!!
وقد عاهد الله ألا يأكل ما يباع وما يشترى،
ولا يلبس ما يباع وما يشتري،
ولا يمسك بيده ذهبا ولا فضة،
ولا يضحك أبدا،
وكان يلبس ما في المزابل.

فهل هذه الألوان من الزهدا بدءا من تعذيب النفس بقلة الطعام، والأكل من المزبلة مما يصلح للحياة؟

وهل هو المنهج النبوي في الحياة ؟

وهل به تقوم الحياة؟

وهل مثل هذا المنهج طريق إلى الولاية؟

أوليس طريق رسول الله ﷺ هو الطريق الأقوم؟.

مبالغات في الصلاة

إن من فضل الله عز وجل على هذه الأمة أنه خفف عنها ما شدد على من كان قبلها من الأمم. وتجلى ذلك في مضاعفة الحسنات والأجور على أعمال قليلة:

فالحسنة بعشر أمثالها،

والصلوات الخمس بأجر خمسين،

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر،

وصيام رمضان وستة من شوال كذلك صيام الدهر،

وليلة القدر خير من ألف شهر،

والقائمة طويلة في هذا المجال.

والنبي صلى الله عليه وسلم هو إمام العابدين،

وقد كان يصوم ويفطر،

ويصلي ويرقد،

ويتزوج النساء،

ويأكل من الطعام الطيب،

ولا يحرّم على نفسه منه شيئا.

فإذا نظرنا إلى مبالغات من ذكرهم ابن الجوزي في صفة الصفوة من العباد الذين جاؤوا بعد الصحابة، وجدنا من ذلك مبالغة في قيام الليل، ومنها هذه الأمثلة :

هذا عمر بن المنكدر تقول له أمه: إني أشتهي أن أراك نائما،

فقال: يا أماه، والله إن الليل ليرد عليّ فيهولني فينقضي عني وما قضيت منه أربي .

وفي رواية : إن الليل إذا دخل علي هالني فأستفتح القرآن وما تنقضي نهمتي منه.

وهذا صفوان بن سليم الزهري كان يصلي بالليل في البيت فإذا كان الشتاء صلى في سطح البيت، يستعين ببرودة الجو على نفسه ليذهب عنه النوم، وقد أعطى الله تعالى عهدا غريبا ألا يضع جنبه على فراش حتى يموت. وعاش بعد ذلك أربعين سنة لم يضع جنبه .

ولا أدري أي فائدة في مثل هذا العهد، ولماذا ضيق على نفسه فينام جالسا لا مضطجعا . ويروى أنه لما نزل به الموت قيل له: رحمك الله ألا تضطجع، فيقول: ما وفيت الله بالعهد إذن !!

وأترك للقارىء المجال للتفكر في هذا الأمر وفي تصوره، ولك أن تشك في الرواية إن شئت.!!

وهذا علي بن الفضيل بن عياض يصلي في الليل حتى يعجز عن الوقوف، بل يعجز عن المشي إلى فراشه فيزحف نحوه زحفا، ويلتفت وهو يفعل ذلك إلى أبيه ويقول: يا أبت سبقني العابدون.

فهل فعل ذلك رسول الله ﷺ؟

صحيح أنه كان يقوم حتى تتفطر قدماه،

وأنه قال: أفلا أكون عبدا شكورا،

لكنه لم يكن من سنته أن يقوم الليل كله، أو أن يعجز عن المشي إلى فراشه، بل نهى عن الحبل الذي وضعته السيدة زينب أم المؤمنين رضي الله عنها لتتعلق به في قيام الليل.

ورويت عدة روايات عن عدد من الصالحين أنهم كانوا يصلون الفجر بوضوء العشاء، ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا ينامون،

والسؤال: هو ألم يكن لديهم في نهارهم عمل؟

وهل كانوا يستطيعون مواصلة الليل بالنهار؟

إنه امر يستحق التفكر والوقوف.!!

وها هو ابن الجوزي يذكر عن سعيد بن المسيب أنه صلى الغداة (أي الفجر)بوضوء العتمة (العشاء) خمسين سنة.

وروت امرأة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه ما اضطجع على فراشه أربعين سنة بالليل.

وروى ابن الجوزي أن وهب بن منبه وطاووس اليمني صليا الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة.

وكان طاووس يفترش فراشه ثم يضطجع فيتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى، ثم يثب فيطويه ويستقبل القبلة حتى الصباح،

ويقول: طيّر ذكر جهنم نوم العابدين.

ذلك شأن بعض العابدين مع قيام الليل.

من غرائب الزهاد

لا ينفك قارئ كتاب صفوة الصفوة تتجلى لها غرائب الزهاد، ويعجب من ابن الجوزي لإيراده إياها.

هل أوردها لطرافتها وغرابتها؟

هل أوردها وهو يروّج لها ويدعو إلى الاقتداء بها؟

وتأتي هذه الأسئلة لأنه أورد الغرائب من غير تعقيب على أكثرها، وكأنه راوية محايد، وهو ليس كذلك، ومن شاء فليرجع إلى مقدمة كتابه ليرى غاية تأليفه.

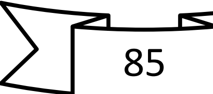
من غرائب الزهاد هذا الموقف بين ابن ووالديه، قال ابن الجلاء :

قلت لأبي وأمي: أحبّ أن تهباني لله،

فقالا: قد وهبناك لله!!

فغبت عنهما مدة ثم رجعت من غيبتي!! وكانت ليلة مطيرة، فدققت عليهما الباب،

فقالا: من؟



قلت: ولدكما!

قالا: كان لنا ولد فوهبناه لله، ونحن من العرب، لا نرجع فيما وهبناه، وما فتحنا لي الباب !!!

وأعجب من هذا الموقف ومن إيراد ابن الجوزي له؟!

ولا أدري ماذا أراد الولد من أن يهبه والداه لله؟

ولا أدري ماذا أرادا؟!

خلاصة الأمر: أنهما طرداه من البيت، وشرداه، ودفعاه إلى قطع الصلة معهما؟!

وهل يرضى الله تعالى عن إغلاق الباب في وجهه في الليلة المطيرة؟! وهل ما قالاه من تعليل يقبله دين أو عقل؟

وهل هذه منقبة لهما تورد في كتاب يراد به التربية وترقيق القلوب؟!.

من غرائب الزهاد وهو أمر لا إرادي، له علاقة برقة القلب، ما ورد عن بعض العابدين والعابدات من بكاء أو انفعال يؤديان إلى الموت، فها هي امرأة تقدم على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وتطلب منها أن تكشف لها عن قبر النبي ﷺ، ففعلت عائشة، فلما رأت المرأة ذلك بكت حتى ماتت!!.

وهذا حال لم يقع للصحابة الذين دفنوا رسول الله ﷺ، ولم يقع لأزواجه أمهات المؤمنين اللائي افتقدنه أشد الافتقاد، ولا مع آل بيته الأقربين، لكنها رقة قلب وجدت من بعد.

وروى ابن الجوزي شيئاً قريباً من رقة القلب وشدة التأثر عن امرأة يمنية قدمت مكة، وكانت تقوم الليل، وكان جيرانها يسمعونها تصلي وتدعو، وسمعوها ذات يوم تصرخ ثم سكتت، فنظروا فوجدوها قد ماتت من شدة التأثر والانفعال.

وروى مثل ذلك عن أسود بن سالم الذي سمع شعراً فتأثر به، لكنه لم يمت بل صرخ ولم يزل مغشياً عليه حتى أصبح.

ومن الروايات الغريبة التي فيها شدة تأثر هذه «المناحة» التي رواها ابن الجوزي، فقد روى أن أحد الأمراء بعث إلى عمر بن المنكدر بمال، فجاء به الرسول إليه، ووضعه بين يديه، فأخذ ينظر إليه ويبكي!!

وجاء أبو بكر أخو عمر بن المنكدر، فلما رأى أخاه يبكي جلس إلى جانبه يبكي!

ثم جاء الأخ الثالث محمد بن المنكدر، فبكى لبكائهما، وأشتد بكاؤهم جميعاً!

فلما رأى رسول الأمير ذلك أخذ يبكي معهم!

وبعث رسول الأمير إليه رسولاً بما هو عليه من حال،

فبعث الأمير ربيعة بن أبي عبد الرحمن ليستطلع الأمر، فسأل عمر عن سبب بكائه.

فقال: خشيت أن تغلب الدنيا على قلبي بهذه الصلة من الأمير، فلا يكون للأخرة فيه نصيب، فذلك الذي أبكاني!

وأمر بالمال فتصدق به على فقراء أهل المدينة،

وأخبر ربيعة الأمير بما كان فبكى وقال: هكذا والله يكون أهل الخير!!.

إنها حساسية شديدة رأيناها في كل من ظهر في هذا المشهد، وربما يقول قائل: كان من الممكن حل المشكلة بطريقتين: قبول المال والتصدق به أو رده!! ولكن هكذا كان!!.

وقد نوع ابن الجوزي في صفة الصفوة ألوان الزهد التي ذكرها سواء في ذلك ما ذكره من أحوال الصحابة وما ذكره من أحوال التابعين ومن بعدهم. وكان من ألوان الزهد الذي فيه غرابة ما ذكرناه من حال بعضهم مع العبادات والطعام.

ومن غرائب ما ذكر في شأن بعض العباد مع الصيام وغيره من العبادات ما أورده عن خنساء بنت خدام التي كانت في اليمن، وكانت جليلة جهورية حسنا وجمالا، فصامت أربعين عاما حتى لصق جلدها بعظمها، وبكت حتى ذهبت عيناها، وقامت حتى أقعدت من رجليها .

إنها عبادة، لا ريب في ذلك، لكنها عبادة أدت إلى مجموعة من العاهات في الجسد، وهل لهذا شرعت العبادة؟

وهل فعل هذا أو شرعه سيد العابدين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؟.

إن هذه العابدة وأمثالها قد غلب على قلوبهم الترهيب، وجاءها وارد قوله صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون».

ولو أنهم وازنوا ذلك بذكر رحمة الله تعالى ومغفرته لكان حالهم حالا آخر.

ومن غرائب الزهاد ما كان من أمر المغيرة بن حكيم الصنعاني الذي أورد عنه ابن الجوزي أنه سافر إلى مكة أكثر من خمسين سفرا حافيا محرما صائما، ولا أدري ما الحكمة من أن يسافر حافيا؟

وهل في ذلك فضيلة أو زيادة ثواب أن تتفطر قدماه ويؤذيهما ما يدوس عليه؟

ومن غرائب ما رواه ابن الجوزي عن الزهاد ما روى عن بعض عقلاء المجانين من أقوال في حال صحوهم.

ولعل ما أورده ابن الجوزي من حال «المجانين» يشير إلى ما هو شائع من الاعتقاد أن من هؤلاء من هم من الأولياء الصالحين، وذلك ما هو شائع لدى فئات كثير من الناس حتى يومنا.

وإليكم هذا الحال الغريب الذي أورده ابن الجوزي لأحد هؤلاء المجانين، ولا أدري إن كان ذلك يسوّغ إيراده في المصطفين من العباد.

قال أبو بكر الشبلي رأيت يوم الجمعة معتوها عند جامع الرصافة قائما عريانا وهو يقول: أنا مجنون الله، أنا مجنون الله

فقلت له: لم لا تدخل الجامع وتتوارى وتصلي؟

فأنشد:

يقولون زرنا واقــض واجب حــــقنا
وقـــد أسقــطت حــالي حقوقهم عنّي

إذا هـــم رأوا حــالي ولم يأنفوا لهـــــا
ولم يأنفـــوا منها أنفت لهـــم منـــي

تنوعت غرائب الزهاد التي ذكرها ابن الجوزي في صفة الصفوة. وهي غرائب لا أشك أنها ناشئة عن الخوف من الله تعالى ومحبته، والخوف من عذابه، والشوق إلى لقائه، مما ولد لديهم إحساسا عجيبا بالغربة عن الدنيا أنساهم أنها دار أمرنا بعمارتها باسم الله تعالى في كل جوانبها لا في جانب الصوم والصلاة والذكر فحسب، ومن غرائب الزهاد ما رواه ابن الجوزي من أحوال بعضهم في السكن، فها هو الحسن المسوحي يروي عن نفسه حاله ورؤيا رآها اتخذها دليلاً على صحة منهجه في الحياة، لنستمع إليه :

قال: كنت آوي إلى باب الكناس كثيرا، وكنت أقرب من مسجد، ثم أتفيأ فيه من الحر، وأستكن فيه من البرد. فدخلت يوما وقد كظني (آذاني)

الحر، واشتد عليّ، فحملتني عيني فنمت، فرأيت كأن سقف المسجد قد انشق، وكأن جارية قد نزلت عليّ من السقف، عليها قميص فضة يتحشحش، ولها ذؤابتان، فجلست عند رجلي، فقبضت رجلي عنها، فمدت يدها فنالت رجلي، فقلت لها: يا جارية لمن أنت؟ قالت: أنا لمن دام على ما أنت عليه !!.

لقد كان هذا العابد يعيش حياة تشرد بكل معنى الكلمة، ولم يكن له فيما يبدو عمل يكسب منه معاشه، ويجعله يأوي إلى بيت، فجاءت هذه الرؤيا لتقول له فيما يرى: استمر على حياة التشرد !!.

ويروي ابن الجوزي عن عجوز من قريش كانت في مكة تأوي في سرب لها، (والسرب حفرة تحت الأرض)، ليس لها بيت غيره، فقيل لها: أترضين بهذا؟ وكأن السائل لم يعجبه ما هي فيه من مسكن، فماذا كان جوابها؟

قالت: أوليس هذا لمن يموت كثيرا؟

لقد نظرت هذه العابدة إلى الجانب المعتم من الدنيا ولم تر فيها إلا انها سريعة الزوال، ونظرت إلى الآخرة فهانت عليها الدنيا.

لقد علمنا ديننا أنه لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، أوليس في مثل هذه الحياة إذلال؟!.

وانظر في قصة هذا العابد عبدالله بن مرزوق الذي كان في مرحلة النزاع،

فقال لرجل: إن لي إليك حاجة،

قال: ما هي؟

قال: تحملني فتطرحني على تلك المزبلة لعلي أموت عليها، فيرى الله مكاني فيرحمني !!.

وهل رحمة الله تعالى مرتبطة بالحال التي طلبها؟

رحمة الله قريب من المتقين،

ورحمة الله قريب من صاحب القلب السليم، سواء أمات على مزبلة أم على فاخر المراتب .

ولعلنا نضيف إلى ما سبق ما روي عن بعض الزهاد من سكنى المقابر بدعوى أن سكانها لا يغتابون ولا يؤذون. وممن فعل ذلك عبد الله بن عبد العزيز العمري الذي تعبّد وسكن المقابر، وترك مجالسة الناس،

وقال: لم أر قط أوعظ من قبر،

ولا آنس من كتاب،

ولا أسلم من وحدة،

هذا مع كونه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، شديدا على أهل الحكم في وعظه، وعظ هارون الرشيد وغيره.

من الشائع أن يجد كثير من المتدينين حرجا من لقاء الرجال بالنساء، مع أن المسلمين والمسلمات كانوا يصلون في المساجد في العهد النبوي وما بعده في مكان واحد من غير فاصل، صفوف الرجال في المقدمة، وصفوف النساء في الخلف. ثم حدث بعد ذلك الفصل في المساجد بتخصيص مكان منفصل للنساء .

لكننا نجد في صفة الصفوة أن ابن الجوزي يورد صورا من اللقاء المباشر بين العباد والعابدات من غير تحرج، ولا سوء ظن.

وها هو يورد أن عطاء ومجاهدا كانا يختلفان إلى جارية سوداء في ناحية مكة يسمعان منها وعظا يثير القلوب فتبكيهما ويرجعان .

وليست هذه الرواية الوحيدة التي يرويها عن العابدات الواعظات، فعن أبي عبد الرحمن المغازلي قال: كانت «حكيمة» مجاورة بمكة فدخلنا عليها ذات يوم فقالت لها امرأة كانت تخدمها، إخوانك جاؤوك يحبون أن يسمعوا كلامك . فبكت طويلا ثم أقبلت علينا.. ويروي بعض مواعظها لهم. ويورد عن بعض العابدات أنهن كن ينفردن بالمجاورة في مكة من غير محرم . فها هي ابنة أبي الحسن المكي، وكان أبوها في البصرة، وهي مقيمة في مكة مجاورة للحرم، وكانت تعيش حياة متقشفة، يكفيها في السنة كلها ثلاثون درهما يرسلها أبوها إليها في كل موسم من مواسم الحج.

ويروي أحد الحجاج أن أباها أرسل إليها المال، فاستقله، وأحب أن يكون له أجر فأضاف إليها عشرين درهما، فلما أوصلها إليها رسول أبيها رأت أن المبلغ قد زاد عن المألوف، ودار حوار بينها وبين ذلك الرسول انتهى برفضها للمال كله لأن دراهمه اختلطت بما أرسله والدها، وقالت: سأقتات إلى الموسم القادم من المزابل !!.

ثم لما رجع هذا الرسول إلى والدها رفض أن يأخذ المال لاختلاطه بغيره وتعب حتى استطاع أن يأخذ منه إذنا بالتصدق بها.

هذه القصة فيها عدة أمور :

ففيها انفراد بعض العابدات بالمجاورة بمكة،

وفيها هذا الورع الذي يصل حدا بالغا في التنزه،

وفيها هذا الموقف المتمثل بالعيش سنة على ما يلقى على المزابل من الطعام !!.

من غرائب الزهاد التي أوردها ابن الجوزي هذه الرواية عن إبراهيم الحربي التي تقدم لنا تصورا غريبا عن القدر والاستسلام له، وهو يخالف ذلك التصور الذي قدمه لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة الطاعون حين أعطانا درسا بمغالبة القدر بالقدر.

قال إبراهيم الحربي: أجمع عقلاء كل أمة أنه من لم يجر مع القدر لم يتهنّ بعيشه، كان يكون قميصي أنظف قميص، وإزاري أوسخ إزار ما حدثت نفسي أنهما يستويان قط، وفرد عقبي مقطوع والآخر صحيح، أمشي بهما، وأدور بغداد كلها، هذا الجانب وذاك الجانب، لا أحدث نفسي أن أصلحهما،، وما شكوت إلى أمي ولا إلى أختي ولا إلى امرأتي ولا إلى بناتي حُمّى وجدتها، الرجل يدخل غمه على نفسه ولا يغم عياله. وكان برأسي شقيقة خمسا

وأربعين سنة ما أخبرت بها أحدا قط، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحدا قط، وأفنيت ثلاثين سنة من عمري برغيف في اليوم والليلة إن جاءتني امرأتي أو إحدى بناتي به أكلته وإلا بقيت جائعا عطشان إلى الليلة الأخرى. .

ولا ادري إن كان هذا المفهوم للقدر سليما؟

وأي فضل في أن يكون القميص نظيفا والإزار وسخا؟

وأي عيب في غسل الوسخ؟

وأي عيب في إصلاح فرد النعل المقطوع وبذل الجهد في الحصول على الطعام؟

وهل ما ورد في قول إبراهيم الحربي من المناقب التي تذكر وتشهر؟

قال علي بن عبد الله: كنا عند يحيى بن سعيد « القطان » فقال لرجل: اقرأ فقرأ ﴿ حمٓ ﴾ الدخان، فلما أخذ في القراءة نظرت إلى يحيى بن سعيد يتغير، فلما بلغ:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ صعق يحيى وغشي عليه وارتفع صدره من الأرض وتقوس وانقلب فأصاب الباب فقار ظهر، وسال الدم وصرخ النساء، فخرجنا فوقفنا حتى أفاق بعد كذا وكذا. ثم دخلنا عليه فإذا هو نائم في فراشه وهو يقول:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال علي: فما زالت به تلك القرحة حتى مات رحمه الله.

ومما أورده عن رباح بن عمرو القيسي ما رواه يحيى بن راشد عن محمد بن الحر بن عبد ربه القيسي، وكان ذا قرابة لرباح قال: كنت أدخل عليه المسجد وهو يبكي، وأدخل عليه البيت وهو يبكي، وآتيه في الجبّان وهو يبكي.

فقلت له يوماً: أنت دهرك في مأتم.

فبكى ثم قال: يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هناك.

هذان نموذجان من أحوال العباد الذين تحدث عنهم ابن الجوزي وأورد أخبارهم وأقوالهم، وهما نموذجان يدلان على شدة الخوف من الله تعالى، تجلى في أحدهما بالخشوع الشديد في تلقي أية من كتاب الله، وتجلى في الأخر في شدة الخوف الذي ظهر في البكاء المستمر حتى صارت حياة ذلك العابد كأنها مأتم.

وقد تكرر ورود مثل هذه النماذج في صفة الصفوة. وهي نماذج لم نشهد لها مثيلاً في حياة الصحابة رضي الله عنهم، الذين هم الصفوة المختارة من البشر لصحبة النبي ﷺ، وتلقي الدين عنه، وحمله إلى العالمين.

ويسأل الإنسان عن سبب ظهور هذه الأحوال التي أثارت عجب وإعجاب الدارسين عبر القرون حتى أوردهم ابن الجوزي في صفة الصفوة. وتجد أحوالهم على ألسنة القصاصين والمدرسين والوعاظ والخطباء يستدرون بها دموع المستمعين ويقارنون بين حال الغافلين قساة القلوب، وحال هؤلاء الذين رقت قلوبهم ودمعت عيونهم.

إن حال الإنسان مرتبط بقلبه الذي هو مناط الصلاح والفساد كما ورد في الحديث الشريف:

« ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ».

وإذا تجلت في القلب صورة الأسماء الحسنى لله تعالى بشمولها كان التوازن ضابط حياته، وإذا مال إلى أسماء الجلال كانت الخشية غالبة عليه، وإذا مال إلى أسماء الجمال كانت الرغبة هي المسيطرة عليه، ولذلك حين تجتمع الصورتان في قوله تعالى :

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾

حين ذلك تبرز لنا صورة جيل الصحابة الذي أقام هذا التوازن الدقيق بين الترغيب والترهيب، بل الخوف والطمع، بين الشوق إلى الجنة والطمع فيها برحمة الله تعالى، والخوف من النار وعذابها، وذلك أمر ضروري حتى تستقيم الحياة، ويؤدي المسلمون دورهم في الأرض بإقامة الدين، والشهادة على العالمين بعد تبليغهم الرسالة.

الزهد والرهبانية

أورد ابن الجوزي في أخبار الأسود بن يزيد أنه كان يُجهد نفسه في الصوم والعبادة حتى يخضرّ جسده ويصفرّ.

وكان علقمة يقول له: ويحك، لم تعذّب هذا الجسد؟

فيقول: إن الأمر جدّ، إن الأمر جدّ.

قال عمارة: ما كان الأسود إلا راهبا من الرهبان.

هذا الخبر يذكرنا بموقف النبي ﷺ من عثمان بن مظعون رضي الله عنه، حين ذكرت له عائشة رضي الله عنها ما رأت من زوجته وما ذكرته عنه من إغراق في العبادة صياما وقياما إلى الحد الذي أهمل حقها،

فقال له: يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فيّ أسوة؟ فو الله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأنا».

إن كثيرا مما أورده ابن الجوزي من «تعذيب» الزهاد لأنفسهم يقع ضمن دائرة هذا الحديث الشريف، ويقع ضمن مفهوم الرهبانية التي لم تكتب علينا، لما فيها من تعطيل للحياة، وكتم لكثير مما استودع الله تعالى الإنسان، مما ينبغي ان يظهر، لتظهر به آيات الله تعالى في هذا الوجود، مما تجلى لنا في عصور سابقة وتجلى

في عصرنا في أجلى الصور التي تملأ القلب يقينا وإيماناً، من كشوف علمية جلت آيات الله في الكون والإنسان.

إن ما وقع فيه كثير من الزهاد الذين حدثنا عنهم ابن الجوزي قد جاوز حياة الرهبان، وهو يذكرنا بحال عبّاد الهند وشرقي آسيا، وقد ذكرنا من غرائبهم نماذج من قبل.

ونضيف إلى ذلك أن منهم من حفر في بيته قبرا كان يتعبد فيه، ومن هؤلاء ضرار بن مرة الشيباني. وإن هذا العمل لموت في الحياة.

ومنهم من صلى حتى أقعد، وبكى حتى عمي، وصام حتى صار كالحشفة .

ويذكر ابن الجوزي أن داود الطائي ورث بيتا عن أبيه، فكان يكون فيه لا يعمره، كلما خربت ناحية تركها وتحول إلى ناحية أخرى، فخرب كله إلا زاوية منه، كان يكون فيها،، بل سأله داية الطائي: أما تشتهي الخبز؟ فرد عليه: يا داية، بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية،، وكأنه يريد أن يرقى إلى مستوى الملائكة فيستغني عن حاجاته البشرية.

في مقابل هذا النموذج الرهباني نجد النموذج الرباني الذي تجلى في جيل الصحابة رضي الله عنهم، ونجده في الأجيال القادمة، من العلماء العاملين الذين أعطوا الدنيا حقها بالعمل والسعي، والأخرة حقها بالنية والوجهة، ومن أمثلتهم

عبد الله بن المبارك الذي جمع بين العلم والدعوة والجهاد والتجارة، وكـان في ذلـك كله إماماً.وها هو يقول: لا يقع موقع الكسب على العيال شيء ولا الجهاد في سبيل الله.

وكان إذا خرج إلى الحج من بلده مـرو يأخـذ نفقـات مـن صـحبوه وينفـق عليهم حتى يعودوا إلى مرو ويشتري لهم الهدايا، ثـم يعيـد إلـيهم نفقـاتهم، وكـان يتاجر لينفق على طلبة العلم والزهاد والمنقطعين للعبادة.

هناك فرق بين الربانية والرهبانية، وبين الزهد والرهبانية.

الربانية والزهـد لا يرتبطـان بحـال العـيش المـادي بـل يرتبطـان بالقلـب والوجهة، فكم من غني رباني زاهد، وكم من فقير دنيوي مادي.

الزهد والمعادلة الصعبة

الناس في الدنيا أصناف، فمنهم من رضي بالحياة الدنيا وزينتها، وانشغل بها، فهي داره ومعاده، لا يعرف دارا غيرها، ولا يعمل خوفا من نار، ولا طمعا في جنة، لا يعرف حراما ولا حلالا، يسعى إلى الكسب والعلو، ويغتر اغترار قارون بكنوزه، وصاحب الجنتين بجنتيه، ويزعم في قراره نفسه أن لا إله، فاتخذ إلهه هواه.

ومنهم من أعرض عن الدنيا، لأنه نظر منها إلى الجسد الفاني الذي يتحول من الطفولة إلى الشيخوخة، والمتع الزائلة التي هي طيف يمر في الحلم، فالعمر طرفة عين، وما في الدنيا متاع الغرور.

يرى أصحاب السلطان يتحول عنهم ملكهم، وأصحاب المال يرحلون ويخلفونه وراءهم، وأصحاب الجاه يصيرون إلى التراب، وينظر إلى الآخرة فتتراءى جنهم بحرها وسمومها وزفيرها، وينظر فيرى الصراط أمامه، فتنقطع رغبته في كل شيء إلا في النجاة من الأهوال، بدءا من هول الموت وانتهاء بأهوال جنهم. وينظر في الجنة ونعيمها وأنهارها وحورها، فيرى أن ما

قدم من عمل لا يرقى به إلى التطلع إليه، فيصيبه الجزع، ويحث نفسه على المزيد من العمل، فيتعب جسده، ويعرض عن الدنيا، وينقطع إلى العبادة صلاة وصوما وذكرا وإيثارا للعزلة عن الناس حتى لا يشغلوه عما فرغ له نفسه.

وقد أورد ابن الجوزي في صفة الصفوة كثيرا من نماذج الصنف الثاني، وهي نماذج لا تصلح لإقامة الحياة الإنسانية على الأرض، لأن منهجها يعني تعطيل الزراعة والصناعة والتجارة والانزواء في المقابر والخلوات، واعتزال الحياة، وانتظار الموت ليأتيهم وهم في «عبادة» بمفهوم الصلاة والصوم والذكر والقرآن.

والمعادلة الصعبة المطلوبة هي في الصنف الثالث الذي يتخلص من الغفلة وآفاتها، ولا يرضى بالحياة الدنيا وزينتها بديلا عن الآخرة، يكون في السوق فيذكر الله، ويرى أنه في تجارته يخدم عباد الله بما يوفر لهم من حاجات الحياة، ويكسب مالا فينفق على نفسه وعياله، يغنيهم ويكفيهم، ويزكي ويتصدق، ويصل الأرحام، ويعمل معه موظفون فيكون سببا لكسبهم، وقل

مثل ذلك في من يعمل في مصنع، أو يستخرج خيرات الأرض الكامنة التي أعدها الله تعالى لعباده، بل في كل منشط من مناشط الحياة.

هذا النموذج الثالث، هو النموذج الصعب، هو النموذج الذي تجلى في مجمل جيل الصحابة، في مراحل حياتهم المختلفة منذ العهد المكي إلى العهد المدني، إلى عهد الفتوح وإقبال الدنيا على المسلمين.

لقد كان موقف الصنف الثاني ردا عمليا على وجود طاغ للصنف الغافل، الذي شغلته الدنيا عن الآخرة، وإن لم يكن بالحدة التي جاءت في وصفي لهذا الصنف في الأحوال كلها.

وتقف أمام الزهاد الذين حدثنا عنهم ابن الجوزي، فتجد في حياتهم «بؤسا» وشظفا في عيشهم، وتجد منهم إقبالا على «العبادة» وتجد حكمة تجري على ألسنة بعضهم، ويكاد يختط عليك الأمر لولا الضوابط التي يزودك بها القرآن الكريم والهدي النبوي وجيل الصحابة الذي كان النموذج لما هو مطلوب من المسلم أن يكونه.

وقفة مع منهج ابن الجوزي

عندما نقد ابن الجوزي كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم بين ما تراءى له فيه من عيوب منهجية، فهل خلا كتاب «صفة الصفوة» من العيوب؟

إنه عمل بشري وكل عمل بشري يتضمن نقصا وتكون فيه وجهات نظر مختلفة، ويمكن أن يجد من يدافع عما يراه بعض الناس عيوبا.

كتاب «صفة الصفوة» في عمومه كتاب جيد يضم سير الأخيار من هذه الأمة، بدءا من رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام ثم من تبعهم من الصالحين، وفي سير كثير منهم وأخبارهم ما يشحذ الهمة للسير في طريق الصلاح. لكن هذا الذي أورده ابن الجوزي في كتابه لم يخل من مواضع يمكن أن تؤخذ عليه، وكم كان كتابه سيكون أصفى وأنقى لو خلا منها أو اتخذ في ما أورده منهجا مختلفا.

وأول ما يمكن أن يؤخذ على ابن الجوزي سكوته عن المبالغات في الزهد، تلك التي أوردها عن التابعين ومن جاء بعدهم، وهي مبالغات

تخالف الهدي النبوي، ولا يقاس بها ما اعترضه النبي ﷺ على من غالى من صحابته أو همّ بالغلو.

وقد أوردت في ما سبق نماذج من ذلك الغلو المستغرب الذي أخرج بعض الزهاد من الحد المقبول في الصلاة والصيام ونمط الحياة إلى ما هو أقرب إلى الرهبانية بل إلى حياة الزهاد من ساكني جنوبي شرقي أسيا والهند، وذلك ما لم يكن هدي رسول الله ﷺ.

وإيراد ابن الجوزي للأخبار والمواقف والأحوال من غير تعقيب عليها يوحي برضاه عنها، وكأنها مواقف للتأسي مع ما فيها من الغلو المرفوض الذي لا تقوم به حياة ولا يصلح للحياة.

ومما يؤخذ على ابن الجوزي اعتماده على المنامات التي أوردها في سير بعض الزهاد للدلالة على صدق منهجهم، وصواب مسيرتهم، وفي تلك المنامات بيان منازلهم عند الله تعالى. ولا يخفى أن هذه المنامات أخبار قد تصح وقد لا تصح، شأنها شأن كثير من أخبار اليقظة المنسوبة إلى بعض الزهاد، ولا يعتد بها في التخطئة والتصويب، فالمرجع الكتاب والسنة.

ومما يمكن أن يوقف عليه في منهج ابن الجوزي هذا الأخبار المنقولة عن عقلاء المجانين، وكأنما يثبت بهذا الصنيع تلك الصورة الشعبية عنهم أن منهم أولياء صالحون، فإن صحت عنهم تلك الأقوال المنقولة فمن الذي يجزم بأنهم من الأولياء والعباد المقبولين عند الله مع ما ظهر من بعضهم مما يخدش الحياء كالتعري مثلا أمام بيت الله؟

وقد أورد ابن الجوزي على ألسنة بعض العباد كلاما منسوبا إلى أنبياء الله السابقين: المسيح عليه السلام وداود عليه السلام وغيرهما ولا يخفى أن هذا من الإسرائيليات التي لا تؤخذ دون نظر وتدبر، وقد يكون فيها كذب على بعض رسل الله السابقين ، وليس لها سند متصل إلى قائليها ، أو إلى النبي ﷺ.

يضاف إلى ذلك ما أورده في نهاية الكتاب عن المصطفين من عبّاد الجن ومتعبداتهم، وهذا أمر في قبوله نظر وفي الاستغناء عنه سلامة.

ومع ذلك كله يبقى كتاب صفة الصفوة ملاذا لمن خمدت نار إيمانه يعيد إليها توهجها بما يجده من أخبار من سلف من الزهاد والعابدين.

وقفة مع الزهد

حين تنظر في كتاب الله تعالى، ونرى ما جلّى لنا من الآيات في الآفاق والأنفس، نجد أن في هذا الوجود كثيراً مما يستحق الوقوف عنده، ونجد أن الله تعالى قد استعمر الإنسان في هذه الأرض، وطلب منه أن يثير الأرض ليستكشف آياته فيها، وأن يسير فيها ليرى آثار من سبقوه، وأن يعبر البحر ليرى آيات الله فيه ظاهره وباطنه، فكيف يوقف عليها إن لم يستثمر الإنسان ما أعطاه الله تعالى من الطاقات الكامنة التي تكشف له عن قوانين الوجود الدالة على الله؟.

هل يكون الزهد بالانقطاع عن الحياة وتعطيل القدرات الكامنة، والانزواء في صلاة دائمة وصيام موصول؟

هل يكون الزهد بقطع النسل، وإهمال الزوجة والولد؟

هل يكون الزهد بالتخلف في مجالات الحياة المختلفة، لتضعف شوكة المسلمين وتكون الكلمة لأعدائهم في الصناعة والتجارة والزراعة وسائر شؤون الحياة؟

لقد شاع في تاريخنا مفهوم الزهد السلبي، وما تزال بقاياه في عقول وألسنة بعض الوعاظ والخطباء، فهل نحن في هذا الزمان بحاجة إلى الزهد السلبي؟

إننا بحاجة إلى الزهد الإيجابي الذي يتمثل في إدراك حقيقة الحياة، وأنها قصيرة، وأنها دار ممر، ودار زراعة، والحصاد عند لقاء الله يوم البعث ومع هذا كله لا بد في المسلمين من الأغنياء الذين ينهضون بجوانب الحياة المختلفة، حتى لا تكون لأعدائهم الصولة عليهم.

إننا بحاجة إلى الزهد ولكنه ذلك الزهد الذي يدفع إلى العلم بكل فروعه، والعمل في كل مجالاته، والإبداع الذي يستثمر طاقات الأمة، عقلية و بدنية ومادية، حتى لا تظل ثروات أمتنا نهبا لأعدائنا، وحتى لا تظل ديارنا مقسمة بالأهواء التي تسعى إلى السلطة ولو على حساب مصلحة الأمة.

لا للزهد السلبي الذي يعني التقوقع والانزواء والسلبية في الحياة، ونعم للزهد الذي يعني أن تكون حياتنا ومماتنا، ونسكنا وصحونا ونومنا وعلمنا وعملنا لله رب العالمين. باسمه نعمل، وباسمه ننفق، وباسمه نعلي راياتنا، وباسمه نمضي في الأرض نبلغ رسالة الله للعالمين.

وفي واقعنا وفي القرون الأخيرة، نماذج من الصالحين تصلح أن يؤلف فيها كتاب جديد يمثل «صفة الصفوة» في هذا الزمان.